أحمد عبد اللطيف

عصور دانيال

في مدينة الخيوط

رواية

دار العين للنشر

إلى الطِّفْلِ الذي كُنْتُه

«فدخل دانيال وطلب من الملك أن يعطيَه وقتًا فيبيِّن للملك التعبير. حينئذ لدانيال كُشِف السِّرُّ في رؤيا الليل».

(سِفْر دانيال)

«هذه ليست معزوفة موسيقيَّة، لكنها حنينُ شخصٍ للعودة إلى ذاته».

(شوبان عن معزوفة رومانس لارجيتو)

العصر الرابع

الأيام الأخيرة في حياة دانيال

1

في صباح الثالث والعشرين من فبراير فتحت الدُّمَى بيدٍ خشبيةٍ نوافذ غرفها وأبواب شرفاتها لتشاهد بعيون زجاجية لم ينقصها الصعقة والرعب عشرات الجثث الملقاة حول نافورة الميدان الرئيسي بدمٍ يطفو على ماء المطر وعيونٍ مفتوحةٍ على العدم

كانت جثثًا مرصوصة بيدٍ آدُمْيَة في شكل زهرة مفتَّحة وقلب الزهرة النافورة نفسها وكانت جثثًا لرجال مذبوحين وعرايا ونائمين على ظهورهم بوجوهٍ متبتلةٍ إلى سماء رمادية تُنبئ بالمطر وعيون منطفئة تحت أجفان متهدلة ومرهقة أجفان تحميهم من النور بعد أن عجزت عن أن تحميَهم من الظلام وكانوا على ظهورهم ويَدَا كُلٍّ منهم متشابكتان في يدِ آخر يمينًا ويسارًا كأنهم سينهضون في لحظة ليطوفوا حول النافورة أو كأنهم ناموا في صحبةٍ وفاجأهم الموت على حين غِرَّة وكانت أجسادهم هامدة كأنها لم تعرف الحياة يومًا والقَطْع العَرْضي بالرقبة منبع الدم مثل شارع واسع يمكن من خلاله التطلُّع إلى خوف قلوبهم المتوقفة وفي فمِ كل واحد منهم عضو ذَكَريّ مبتور من مكانه الأصلي

لينام في ليلة سوداء في موضع غير موضعه وكانت أعضاءً مختلفة الأحجام غير أن ما يجمعها أنها منكمشة ومهزومة وكان عدد الجثث أربعين لرجالٍ تتراوح أعمارهم بين الأربعينات ومنتصف الخمسينات بأجساد متساوية ومكتنزة لم يُنقص الموت من كروشهم المرتفعة ولا أنقص الدم المهدور من ضخامة وجوههم

من بين الأجساد الممتلئة كان ثمَّة جسد واحد شديد النحافة حتى كأنك ترى أعضاءه من خلف العظام وبَدَا كأنه جاء بينهم بالخطأ مثل ريحانة نبتت في صحراء وكانت جثةً لرجل ثلاثيني بوجه ممصوص وشعر ناعم يرتفع قفصُّه الصدري عن بطنه مسافة إصبع كاملة وعلى عكس الآخرين كان خمريًّا وعلى عكس الآخرين لم تشتبك يداه بيد أحد وكان فمه مغلقًا على لا شيء ولم يكن عاريًا وكان مقتولاً برصاصةٍ ويتأبَّط حقيبةَ كتفٍ تحت ذراعه اليُمنى وكانت الحقيبة الطريق وعليه أن يسير فيه وعليه أن يقبض عليها كأنها الدليل لتجواله في العالم الآخر وكأنها تحمل مفاتيح الأبواب السبعة قبل الوصول إلى الخلود وكان هذا الرجل النحيف جثةً أيضًا لكنها لم تكن جسدًا مذبوحًا وكان هذا الرجل هو دانيال

وبعيدًا عن الأجساد الفانية بخطواتٍ تناثرت نظَّارات طبية ومَحافِظ للنقود وبناطيل وقمصان وچواكت بِدَل وربطات عنق وأحذية وجوارب وتليفون محمول وميداليات مفاتيح

فضية وذهبية وحول كل ذلك سيارات تطوِّق الميدان في شكل دائرة على بُعد سبعة أمتار على الأقل من الجثث وكانت بأبواب مفتوحة تدعو للسرقة وربما كان فخًّا صنعه الجُنَاة لنفسٍ طامعةٍ ستدفع ثمن طمعها حياتها كاملةً لو اقتربت وبرَكْنَة السيارات بهذه الطريقة كانت الشوارع المطلة على الميدان مغلقة وساعة وقوع الحادثة كان الظلام يطوِّق المدينة ولم تكن أعمدة الإنارة إلا سلسلة من الجثث المنصوبة وحين أشرق الصباح لم تعرف الدُّمَى إلا الصعقة والرعب

2

قبل هذه الحادثة بثلاثة أيام كان مطرٌ غزيرٌ استمر ليومين متتاليين مع استراحات قصيرة ربما لم يلحظها أحد قد أغرق شوارع المدينة وحوَّلها إلى بحور فبات تهديدًا طبيعيًّا لم تملك الدُّمَى أمامه أي مقاومة أو حيلة باستثناء صنع جسور من ألواح خشبية لعبور الشارع أو تكنيك بدائي لتصريف مياه تلقاها السكان فى البداية كبُشْرَة خير ثُم ما لبثوا أن اكتشفوا أنها لعنة وهكذا صنعت الأمطار بحيراتٍ ظلت تتكاثر على مدار ساعات حتى غطت السيارات وبلغت نوافذ الطوابق الأرضية ولمست علب أعمدة الإنارة العمومية المفتوحة فتسبِّبت في ماسٍ كهربائي في عدة أماكن وفَقْدَ العشرات حياتهم صعقًا ثم في لحظةٍ أدرك أحد المارَّة أخيرًا كما قال بصوت مرتفع فائدةً للبالوعات المفتوحة منذ سنوات فبعد أن خطفت أرواح أطفال من قبل ها هي الآن تشفط المياه وتخفف قليلًا من كثافة البحيرات أما من سقطوا فيها الآن أو قبل ذلك فليسوا إلا موتى راحوا إلى مصيرهم المحتوم

خلال يوم كامل غدت كل الطرق الرئيسية مسدودةً من صفوف سيارات لا نهائية لا تتحرك خطوة للأمام وكانت باصات مدارس وباصات عامة وميني باصات عامة وخاصة وميكروباصات وسيارات خاصة كلها مُكدَّسة لساعاتٍ شعر فيها الركاب وهم من الدُّمَى كذلك بأنهم في كابوس كل ما

يحلمون به ويتطلعون إليه أن يصحوا منه ومن بينهم من لم يحتمل هذا الاحتباس فخرج يصرخ من سيارته إحنا في كابوس فيما تضامن معه محبوسون في سياراتٍ بإيماءة بالرأس تحمل من اليأس أكثر مما تحمل من الدعوة بالصبر ومن بينهم أطفال مدارس لم يسمعوا العبارة لكنهم فهموها ففي جحيمهم المستطيل ووراء نوافذ مغلقة بأمر مشرفات الباص خوفًا عليهم من البرد أو الهروب إلى الموت كانوا يتعذَّبون لساعاتٍ تجاوزت التسعَ حُرموا فيها من الأكل والشرب وزيارة الحمَّام المعتادة وبلغت الساعة التاسعة مساءً ولا يزالون محشورين في طريق مسدود بلا أمل في النجاة وتناثرت أخبار عن أن شهودًا رأوا دُمْيَة رجل خرج من سيارته ركضًا وألقى بنفسه في النهر من فوق كوبري علوي لكن الصحف لم تنقل الحادثة والتلفزيون لم ينقل أي خبر عن أزمةٍ تحيط بشوارع مدينة هائلة

عادت الدُّمَى إلى بيوتها بمعجزات وتركت السيارات غارقةً فيما راحت تركض في الشارع مثل المجاذيب ولم يكن ذلك بمحض إرادتها إذ لا يمكن الحديث عن الإرادة في المدينة كما أن الأمطار لم تمنحها فرصةً للإرادة لقد انهمرت حتى بلغت طول دُمْيَة رجل بالغ ومن حُسْن الحظ لو أمكن الإشارة إلى الحَظِّ في يومٍ كهذا أكل الخوف قلوب دُمى آباء ودُمى أمهات فنزلوا من بيوتهم وأشغالهم واقترب من الباصات مَنِ استطاع الاقتراب وسحبوا أولادهم من

الجحيم لينقلوهم إلى جحيم آخر لكن ثمَّة لفتة لا يمكن إغفالها حتى لا نبدو قاسين إذ نزلت دُمى بيوتها قريبة من مكان تكدُّس السيارات في استجابةٍ لدعواتٍ أطلقها أفراد على الفيسبوك وتويتر لنجدة المنكوبين في الشوارع ونقلهم إلى بيوتهم ذاتها وكانت أولويتهم للدُّمَى صغيرة السن فانتقلت دُمَى الأطفال مع دُمَى مشرفات بأحذية موحلة وملابس مبللة إلى بيوت لا يعرفونها ولأن العالم ليس مثاليًّا حدث اختطاف لأطفال من دُمى ادَّعت أنها مبعوثة من قِبل الآباء لإعادتهم إلى بيوتهم وكان الهرَج والمرَج والخوف فرصةً لتكسير كل التعليمات والإجراءات الاحتياطية

بدأت مأساة أخرى جانبية أبطالها عائلات من الدُّمَى تبحث عن أطفالها في جوٍّ شتويٍّ ممطر ومدينةٍ غرقت في شبر ميَّة وحَيْرَة من البحث في المستشفيات وأقسام الشرطة ومحطات القطارات مع العلم أن موظفيها الدُّمَى لن يعطوهم جوابًا شافيًا لأن المرضى الدُّمَى والأطباء الدُّمَى والمساجين الدُّمَى والسجَّانين الدُّمَى لا أحد فيهم سيرى غرابةً في اختفاء الأطفال خاصةً لو كانوا أطفالَ دُمى أخرى لا تخصهم وكانت حيرة الأهالي هل المكان المناسب هو أماكن وُجِد فيها الإنسان أم أن الأجدَى البحث في مَحالِّ الدُّمَى ومَحالِّ لعب الأطفال حيث سيشعر الأطفال بالوَنَس حتى يأتي مَن يشتريهم ويعلِّقهم كزينةٍ في شرفات منازلهم أو على جدران بيوتهم ففي طفولتهم وبراءتهم لن يتوقَّعوا الشر في العالم

ولن يعرفوا أنهم قد يصيرون شيئًا آخر غير الدُمْيَة حتى عيونهم الزجاجية ستكون مدعاة للدهشةً وليس للرعب

في الأثناء سمع الأهالي الدُّمَى نصائح من الجيران والمعارف بنشر صور الأطفال في كل وسائل الإنترنت المتاحة ولصق صورهم على أعمدة الإنارة وواجهات المَحالِّ والشوارع الرئيسية وسمعوا مخاوف من فقدان الابن إلى الأبد وشائعات تتحدث عن لصوص للدُّمَى تُصدِّرها إلى دول أسيوية وفي عز الليل والبرد كانت صرخات الأمهات تبلغ حتى الطوابق العليا مناديةً باسم ابنها أو ابنتها وتعليقات من دُمى واقفة في الشرفات تتنبَّأ بالعثور على الأطفال في مسرح العرائس لتؤدي دورًا كُتِب لها أو في مَحالّ الدُّمَى بأحد شوارع المدينة التجارية ولم يكن في هذا النوع من التعليقات سخريةٌ ولا جديةٌ ولا تعاطف مجرد كلمات تخرج من الحنجرة لتستقر في العدم

في ذاك اليوم لم تنقطع الاتصالات لكنها كانت مُشوَّشة وصعبة وكانت معجزة على أي حال أن تلتقط أي شبكة إشارة وهكذا بيَّت الكثير من الأطفال في بيوت بالحي الهادئ ونام أطفال آخرون في بيوت مجهولة ورجال ونساء في بيوت أصدقاء أو معارف أو زملاء عمل قريبة من مكان إنقاذ أطفالهم ثم في عمق الليل انقطعت الكهرباء وحلَّت ظُلمة شعر بها مَنْ لا ينامون في برد فبراير إلا بالمدفأة وانتبه لها مَن يستجيبون لرغباتهم الداخلية وهم نائمون

فيسيرون إلى الحمَّام كمن يتخبَّطه الشيطان من المَسِّ ورآها بعيونٍ يقظةٍ أصحاب الأرَق الذين لا ينامون خارج بيوتهم ولا يلبُّون دعوة الأسرَّة الغريبة وما بين الشوارع الغارقة في ماء المطر والطين والبيوت الغارقة في الظلمة بدت عيون الدُّمَى الزجاجية مثل عيون القطط لامعةً ومرعبةً بقدر ما هي لامعةً وخائفةً حتى إن الأب ارتعب من عين الابن وحتى إن الزوجة ارتعبت من عين زوجها والأطفال الرُّضَّع لم يناموا ليلتها من البكاء إذ كانوا محاطين باعين شيطانية لن تكون أكثر قسوةً من عيونٍ أخرى سيرونها في مستقبل قريب لو أمكن الحديث عن مستقبل ما بعد الظلام ولن يكون غريبًا أن نسمع بعد شهرٍ من الآن أو بعد سنةٍ فأنا لا أعرف تقدير الزمن مَن يقول كنت أحبها حتى سادت الظلمة فرأيت حينها عينًا زجاجية أرعبتني فهجرتها ولا امرأة تحكي في مكالمة تليفونية أنها هجرت حبيبها خوفًا من عينيه ففي هذه العتمة لن يظهر إلا الجانب البائس في الدُّمَى حتى الشموع التي أضاءت الليل لم تمنح جوًّا رومانسيًّا بقدر ما منحت أجواء أفلام الرعب السابقة على حوادث القتل

3

كان شتاء فبراير في أَوْجِه حتى إن الشمس تكاد لا تظهر من وراء السُّحُب وكان القمر مخنوقًا بسحبٍ تبدو كيَدِ قاتلٍ ماهر وفي صباح اليوم التالي للمطر والظلام غامر أبٌ هنا وأُمٌّ هناك بالعودة إلى البيت حينها كان المطر في هدنة لكن الشوارع لا تزال غارقة وتفتَّق عن ذهنِ دُمْيَة رجل وَضْعُ ألواح خشبية للعبور من رصيفٍ إلى رصيف فبدت من بُعد كجسرٍ يعبر نهرًا وبدا المارَّة كرجال سيرك يمشون على الحبل حينها حمل الرجال أطفالهم على أكتافهم وتدلَّت رِجْلان صغيرتان على الصدر وحملت النساء أطفالها وتدلت رِجْل على الصدر وأخرى على الظهر وملأت الغيوم السماء وتطلعت إلى المدينة منذرةً وربما مُشفِقة

وأثناء ذلك ثمة صرخات كانت تنفجر لأن لوحًا لم يحتمل الثقل فوقعت عائلة كاملة من الدُّمَى فقال شهود متطلعون من النوافذ والشرفات وقعت في البِرْكة لكنها كانت بحرًا في الحقيقة لكن كيف تكوَّن البحر من مجرد أمطار وكيف تموت عائلة هكذا في طرفة عين لم تكن هذه أسئلة بقدر ما كانت تعجبًا وحين طلعت الشمس لأنها لا بد أنها طلعت بعد يوم أو سنة لا أعرف لأني لا أعرف تقدير الزمن جفَّ ماء المطر وتبقَّت الجثث متحللةً في مكانها راسمةً على الأرض منحوتات لأجساد فانية تكوَّنت مثل الدُمْيَة الأولى من تراب ممزوج بالماء وبعد سنواتٍ أو قرونٍ لا أعرف

سيكون الأثر الوحيد من المدينة هذه التماثيل التي كوَّنتها الطبيعة كنحتٍ بارزٍ في الأرض وسيأتي عالِمُ آثارٍ يشرح لتلاميذه كيف كانت الحضارة الدُّمْيَوية عظيمة إذ خلَّفت وراءها هذا النوع البديع من النحت البارز ومن مادة ضعيفة مثل الطين قاومت الزمن ولابد أن لحظة زمنية ستسبق هذه اللحظة سيأتي فيها من يعرف قيمة الأثر فيحيطه بصندوق زجاجي وربما يفعل ذلك ببساطة قريب للعائلة كان من حُسْن حظه أنه لم يرافقها في هجرتها من رصيفٍ إلى رصيف لكن من سوء حظه ربما أنه لا يزال مُهدَّدًا بموت شبيه لكن على العموم فالدُمْيَة الرجل أو الدُمْيَة المرأة ستضع صندوقًا زجاجيًّا مرفقًا بشاهد قبر باسم العائلة وتاريخ الوفاة وهو ما سيحدث مع الجثث الأربعين التي سيعثرون عليها بعد ليلتين فرغم دفن الجثث كما سنعرف بعد ذلك سيبقى أثرها بنحتها البارز في المكان نفسه من دون أن يذكر أحدٌ أسباب القتل ولا مَنِ القتلة وربما في زمنٍ آخر كما حدث في أزمنة أخرى تستحيل أضرحةً لأولياء أو مزاراتٍ سياحية

ثم جاء نهارٌ ساد فيه بعض الهرَج ولاح أملٌ في العودة إلى البيوت أو في الخروج إلى الشارع انتهى مع غروب الشمس فلا شيء يخيف الدُّمَى مثل الظلام والبحر والاثنان صارا على عتبة كل بيت هكذا التزمت ببيوتها واستحالت قاحلةً شوارعُ مدينةٍ كانت عامرة منذ أيام مضت كأنَّ قدمًا

لم تلمسها من قبل وكان بوسع المتاجر والحانات والمقاهي أن تفتح أبوابها لروَّاد غالبًا لن يأتوا لكن أصحابها خافوا من حوادث سطو عنيفة قد تحدث في الظلام وربما لا تنتهي بسرقتهم فحسب وإنما تمتد لقتلهم هكذا استخدم المحتاطون مُولِّدات كهربائية استخدامًا منزليًّا لكن الأغلبية استخدموا شموعًا وبعضهم استخدم كشافاتٍ كهربائيَّةً مشحونةً بمحض صدفة لكنها لم تقاوم يومًا كاملًا وفي زمن آخر كان من الممكن أن يستخدموا اللمبة الجاز أو قنديلًا يعمل بالزيت لكن هذا الزمن قد ولَّى ولم تَعُد هذه اللمبات من ضرورات البيوت

4

عاد المطر غزيرًا في منتصف الليل والجثث التي تمنَّت جفاف الماء لتذهب إلى قبرها وتستريح في التراب خاب أملُها في ليلة محاطة بملائكة الموت ثم انقطعت الاتصالات نهائيًّا وهي كارثة اكتشفها أولًا مستخدمو الموبايل ثم مَنْ لجئُوا إلى الخطوط الأرضية التي بتضامن مع الشبكات الهوائية أنهت خدمتها وكان يومان وثلاثُ ليالٍ كافية لتغيير إيقاع المدينة وإيقاع الشوارع إذ اختفى زحام السيارات وضجيجها وبدا حرَّاس البنايات (وحراس سفارتين في المحيط من دُمى خضراء يؤدون خدمتهم) كأبطال ليليين يجتمعون عند بنايةٍ تحرسها دُمْيَة مغتربة ويشعلون الحطب فيمنحهم الدفء والنور الطبيعي

مع ذلك ظهر ضجيج آخر خفيف ومكتوم ضجيج دمى شباب في بداية شبابهم يجتمعون على ناصية شارع أو يجلسون على سيارة ربما سيارة أحدهم يدخنون الحشيش أو يشربون البيرة وبين حينٍ وحين تأتي صيحة أحدهم وتليها صيحات أخرى ويفعلون ذلك بقوة مَن يعارضون القانون ويعرفون أنهم في حماية منه ربما استطاعت دُمْيَة ولد تقبيل دُمْيَة فتاة في هذه الظُّلْمة عند مدخل بيت غاب حارسه أو وراء سيارة لكن هذا الصخب نفسه كان يتلاشى قبل منتصف الليل فالليل البادئ من السادسة مساءً كان كفيلًا بالقضاء على النهار مبكرًا ليكون النوم اختيارًا أمثل يأتي

عادةً بعد حكايات يسردها آباء وأمهات على مسامع أبنائهم هي ذكريات من زمن فات يتسلل إليها مخاوف من الغد لو استمرت الظلمة وحكايات الأبناء لعائلتهم عن أحداث يومية واستحضار لذكريات مضحكة يسخرون منها لقد خلقت الظلمة في ليالٍ قليلة نوعًا من الحميمية بين العائلة الواحدة حميمية كانت قد ضاعت مع إيقاع الحياة السريع ومن وراء الشبابيك الزجاجية البيضاء في معظمها ومن خلف ستائر نصف مسدولة كانت أضواء الشموع تتراقص بوَهَن وتتحرك ظلال الجيران في البنايات المواجهة لبنايتي على الجدران الداخلية كلما همَّت دُمْيَة بالنهوض أو كلما هزت رأسها أو يدها كاستجابة تلقائية ترافق الحديث أو تناول طعام أو مشروب ساخن صُنِع بغازٍ سينفَدُ بعد قليل لكنه الآن يؤنس ظلمتها ويُدفئ أجسادها الباردة ومع ذلك كان وراء الأجساد والإيماءات البطيئة كلامٌ لا يُقال يدور في الرؤوس لكنه لا يُقال وكأنَّ الكلام يُثقِّل الأجساد فيجعلها بطيئة الحركة

5

ما الذي يمكن أن نفعله في ليالي الشتاء المظلمة كان السؤال الأكبر والأكثر تكرارًا خلال ثلاث ليالٍ قبل أن يحلَّ سؤال آخر أكثر أرقًا حول حياتهم نفسها لقد خلَّفت الظلمة الوقت خلقت الفراغ فشعروا بضرورة أن يملئُوا هذا الفراغ كما يملأ العطشان الكوب الفارغ غير أنهم يصبُّونه قطرةً قطرةً في انتباهٍ حادٍّ كيلا يتسرب الضجر إلى نفوسهم فالضجر والظلام معًا طريق ممهد إلى الجحيم وعلى ضوء شمعة قد يقرأ أحدهم وعلى ضوء شمعة قد يكتب آخر وقد يتطلع ثالث إلى الشارع كما أفعل أنا من شرفتي بالطابق السادس رغم أن أشجار الڤيكس المتشابكة تحجب الرؤية قليلًا وقد يخطف النظر خلسةً إلى بيوت الجيران وتروح عيناه وتجيئان على شارعٍ خالٍ إلا من عبارة هاربة من مدخل بناية أو قهقهة رنَّانة على ناصية شارع

لكن البيوت التي تتكوَّن من عائلة وأفراد قد يفضِّلون الحوار مع أن الحوار مهما طال لن يملأ سِتَّ أو سبع ساعات هي المسافة من مجيء الليل حتى حلول النوم وربما لن تغيب النقمة عن حديثهم فانقطاع الكهرباء يعني أيضًا انقطاع الماء عن الأدوار العليا وربكة يوميَّة لقضاء الحاجات الضرورية للدُّمْيَة وكل ما كان سهلًا من قبل بات الآن معجزة وربما لو أمكن التنصُّت عليهم لسمعنا تبريرات

عن خطة حكومة الدُّمَى في ترشيد الاستهلاك رغم أن الجميع يعلم الخطوات السابقة لانقطاع الكهرباء ورغم أن الجميع يعلم أنها خطوة أخيرة في مسيرة طويلة من العمَى وفي ساعاتٍ متواليةٍ كانت الشموع تنطفئ واحدةً وراء أخرى ليعود البيت إلى بدايات الخلق: ظلام بلا نور وهدوء سرمديّ

6

إذا كانت ليلة الظلام الأولى مرت بتأفُّف رغم أنها لم تكن مفاجأة لأحد بل كانت تطورًا طبيعيًّا لعواقب المطر فالليلة الثانية مرت بكثير من الاستسلام كأن الظلام قدَر مثل الموت ومثل الحب غير أن الليلة الثالثة في المقابل كانت أكثر عمليةً وأرض البحث عن حلول فردية وفيها انتفضت الدُّمَى بعد أن شعرت أن حياتها نفسها مُهدَّدة

هكذا توجَّهت دمى رجال في الخفاء وربما على أطراف أصابعهم إلى محطة الكهرباء القريبة وهي محطة لم يكن اقترب منها أحدٌ من قبل لكنها معروفة لسكان المدينة وكثيرًا ما كانوا يمرون عليها من دون أن تشغل بالهم ولا حتى فكروا في العاملين فيها وهؤلاء الدُّمَى الرجال وصلوا فُرادَى إلى المحطة ربما بعد أن قال كل دُمْيَة رجل لامرأته سأروح بنفسي لأحل المشكلة وسأقترح عليهم أن يتغاضوا عن خط الكهرباء الموصِّل بشارعي وأن ينزِّلوا السِّكينة في الخفاء كأنها نزلت من تلقاء نفسها أو فعلها عامل ولا نعرف من فعلها ومن جانبنا سنستخدم أقل قدر ممكن من الكهرباء كهرباء تعيننا على الحياة من دون أن تلفت الانتباه ندَّخر الماء الكافي في البانيو وفي الجرادل وجوالين المياه المعدنية نستخدم كهرباء للثلاجة حتى لا يفسد الطعام وكهرباء للسخَّان لنتمكن من الاستحمام وكهرباء للتلفزيون لنشاهد فيلمًا قبل النوم لن نسرف لن نلفت انتباه جيراننا

في الشوارع الخلفية وسيقول الرجل لزوجته ماذا سيخسرون لو فوَّتوا شارعًا واحدًا لكن هذا الرجل ولأنه دُمْيَة لا يعرف أن الجميع يحلم بأن يفوِّتوا شارعًا واحدًا وأن النجاة من الظلام أمنية تتمنَّاها كل دُمْيَة وكل بيت

وحين يصل إلى هناك سيُفاجأ فالبناية المنسية غدت قِبلةً لعدد ليس هينًا من دُمى رجال مثله خرجوا بآمال وسيعودون بخيبة وكلهم دُمى رجال من نفس الحي قرروا أن يجازفوا في الظلام وأن يتجاسروا وكان لديهم تضخُّم في الذات الدُّميوية يسمح لهم بهذه الخطوة تضخمٌ لا يقبل الهزيمة مِنْ دون محاولة حتى بعد المحاولة سيشعرون بالإهانة

المهم أنهم ساروا على أقدامهم من شارع إلى شارع إذ لم تكن سياراتهم الغارقة بالضرورة عملية في هذه اللحظات حتى لو نجت داخل جراچات عماراتهم ولا بد أنهم فكروا أن مخاطر الحوادث بسيارة في بحر المطر وظلام الليل أكبر من مخاطر الوقوع في مَطبٍّ أو بالوعةٍ مفتوحة بذلك وصلوا فُرادَى إلى البناية وشاهد الدُّمْيَة الرجل منهم البوابة مقفولة وعليها حارسان وشاهد عددًا لا يقلُّ عن أربعين رجلًا يلتفون حول الحارس بعبارة دعنا ندخل ببساطة لن نفعل شيئًا سنقول للموظفين كلمات قليلة ونسأل عن مدة انقطاع التيار الكهربائي وإننا نريد أن نرتب حياتنا وكل رجل نطق بعبارة من هذه العبارات ومنهم من مال على أحد الحراس ووضع ورقة نقدية في جيبه فانتفض الحارس كأنه انتبه إلى لمسة

لكنه لم ينتبه إلى ورقة نقدية استقرت في جيبه

أمرهم الحارس جميعًا بكل تهذيب ممكن أن يبتعدوا أن يعودوا إلى بيوتهم أن محاولاتهم بلا جدوى فلن يمرُّوا لأن الأوامر ألَّا يمرَّ أحد ولن يخالف الأوامر لأنهم سيطردونه من العمل عمله الطارئ ومَنْ يا سادة على استعداد لترك العمل حتى لو مؤقتًا في هذه الظروف لديَّ أطفال افهموني ثم إن البناية خالية كما ترون ليس ثمَّة موظفون انظروا البناية مظلمة مثل بيوتكم ومثل بيوتنا ومثل كل البيوت ثم صمت الحارس وكان دُمْيَة وتأمل عبارة بيوتنا وبيوتكم لتبزغ في ذهنه صورة بيته المتواضع والغرفة الوحيدة والصالة الخالية إلا من كنبة وفي قرارة نفسه وَدَّ لو يعتذر عن جمع بيوتكم وبيوتنا في عبارة واحدة

وفي النهاية أدركوا ما يقوله الحارس إنه مُحقٌّ وإن وجودهم هنا بلا فائدة ومناصبهم لن تفيدهم في هذه اللحظة فالطوفان لا يفرِّق بين كبير وصغير والرجل الذى قال لزوجته سأحلُّ المشكلة وأعود اقتنع كذلك لكن أمامه مشكلة أخرى ماذا سيقول لزوجته حين يعود وكيف يقنعها بأن المسألة أكبر من قدرات أحد رجال الدولة وكيف يقنعها بأنه لم يفشل وبأنه الرجل الذي لا يعرف الهزيمة وفي النهاية اتخذ طريق العودة إلى البيت ولأول مرة في حياته يعرف معنى عبارة يجرُّ أذيال الخيبة واستقر حين اقترب من البيت على رَدٍّ مقنعٍ لزوجته أن التيار الكهربائي مقطوع حتى

عن قصر الرئاسة نفسه تخيَّلي يا حبيبتي الأزمة أكبر مما نتخيَّل يا حبيبتي وليس علينا إلا الصبر يا حبيبتي

7

في البناية المواجهة لبنايتي وفي الطابق الخامس بالذات كان يسكن دانيال وكانت شقته مضاءة جدًّا بكثير من الشموع إضاءةً ملفتة لكثرتها لكن الملفت أنها لشخص واحد مع أنه من آنٍ لآخر يظهر وراءه طيف امرأة لا أعرف هل هي امرأة حقيقية أم مجرد شبح وكان دانيال يبدو أكبر من عمره الحقيقي ومنذ بداية الظلمة وهو يكرِّس حياته للكتابة كأنه يسابق الزمن وكان يُراكِمُ الأوراق كأنه سيصنع هرمًا يُدفن فيه كفرعون مصري قديم بيت أبديَّته من أوراق مُسوَّدة

كنت أتتبَّع دانيال منذ سكن في هذه الشقة وأراقبه كلما رفع البلاك أَوِتْ وفتح الستائر البيضاء قليلًا ومنذ تعوَّد ألا يخجل من عيون الجيران المتلصصة ولا يخشى مطاردتها صار يتجول بشقته بأريحيَّة طفل يتجول في حديقة لا أظن أنه عرفها من قبل وفي شهور الصيف ويشمل معظم شهور السنة كان يجلس بجوار النافذة ويدخن أو يقرأ كتابًا أو يقرأ أوراقًا ودانيال يحمل نفس اسمي وبعض ملامحي فكلانا نحيف بوجه مثلث وشعر ناعم ونظرة قوية وكلانا أعْسَر وكلانا يشبه شوبان وكلانا يسمع رومانس لارجيتو لكن ذلك لا يعني أننا أنا وهو شبيهان بل يمكن أن أقول إننا نقيضان في الجوهر ولو اجتمعنا في جلسة سيحدث خلاف بيننا

وفي ليلة الحادثة فيما كنت أتأمل دانيال في الطابق الخامس كنت أقول لنفسي إن دانيال ابن النور وأنا ابن الظلام بشمعة واحدة أعيش ومائة شمعة لا تكفيه أحب ألَّا يراني أحد وأن أبدو كظِلٍّ ويحب أن يضيء العالم أمامه ومن حوله حتى في الأيام العادية لم يكن يطفئ النور أبدًا حتى لا تتسلل إلى شقته لحظة ظلام بين غروب النهار ودخول الليل وكنت لا أفتح النور أبدًا ويكفيني بصيصُ ضوء يُذكِّرني بأني حي ولست في قبر ومن نافذتي كنت أتتبَّعه وهو يخرج يوميًّا وأحيانًا أكثر من مرة في اليوم وكنت أراه يعود ويجتاز باب الشقة حتى يبلغ الصالة الواسعة بملابس الخروج

وفي مراتٍ نادرةٍ كانت تظهر امرأة شابَّة أكثر شبابًا منه وتقوم هي بإسدال الستائر أو فتحها فيما يجلس وراءها غير مبالٍ ولو كان نظري جيدًا فالمرأة كانت متعددة ومهووسة بالتغيير تظهر أحيانًا وتختفي أحيانًا كأن لعبة الظهور والاختفاء لعبتها المفضَّلة وربما لأني أراقب الطابق الخامس بتكرار وربما بفضول لافت أنا نفسي لم أنتبه له انتبهتْ لي المرأة ذات مرة وأنا أنظر خلسةً من نافذتي نحوها ولعلَّها فهمت أني أخترق خصوصيتها وأن نظري بغرض الإثارة مع أني في الحقيقة أراقب دانيال ولا أنظر إليها إلا لأنها تقع في محيطه أو لأفهمه من خلال علاقتهما لكن الحقيقة أيضًا أنها ورغم انتباهها لي لم تُعِرْني اهتمامًا

وأغلب الظن أنها فكَّرت أني دُمْيَة واقفة في النافذة لتدخن سيجارة ببساطة ولست مُتلصِّصًا لأنها لم تخبر دانيال بشيء ولم تحذِّره من وجودي ولا حتى أسدلت الستائر قليلًا لترسل لي رسالة ضمنية بضيقها مني ولم تعاود النظر إلى أعلى مرةً أخرى

والحقيقة أيضًا أن دانيال يعرف بوجودي من قبل ظهورها ورغم أنه يعرف بوجودي فإنه يحاول تجاهلي حتى عندما تقف المرأة في النافذة وتدخن سيجارة أو تنشر الغسيل أو عندما تتأمل بزوغ الفجر أو غروب الشمس لا يهتم بأن يرافقها ولو فضولًا ليعرف مَنْ في الجيران ينظر إليها أو يتابعها ورغم أني رأيت وجهها عدة مرات فإني لم أميِّز ملامحها على عكسه هو إذ أعرف ملامحه بالتفصيل وإن كان أحيانًا يبدو لي الرجل الغامض النحيف ذا نظارة النظر

8

وفي ليلة الحادثة كان دانيال يجلس وحيدًا كمعظم الأحيان ومن ورائه كانت المرأة تتحرك في الخلفية حركةً تؤكد وجودها بقدر ما تؤكد غيابها وكان الجو باردًا جدًّا لكنه جوٌّ يروق له لأن لسعات البرد على وجهه تنعشه وفي النهاية يمكن أن يتنفَّس نفسًا كاملًا يملأ صدره ويشعر بوصول الهواء إلى مُخِّه وأعماق رئتيه حينها كنتُ أنا متكئًا على سور النافذة جالسًا فوق ذراع كرسي الأنتريه الكبير ووجهي للخارج أتأمل السماء حينًا وحينًا آخَر البناية التي في مواجهتي

وكان دانيال كأنه مرآة لي فاتحًا النافذة وجالسًا على كرسي الأنتريه ومُتلحِّفًا بكوفرتة ويداه كانتا طليقتين إحداهما تمسك بأوراق فلوسكاب والأخرى تكتب بقلم وظَلَّ ساعاتٍ على هذه الحالة يكتب بانهماك مصارع ثيران ويود أن يطعن الثور بخنجر لينتصر عليه وكان محاطًا بشموع كبيرة من حوله يضعها في شمعدانات متعددة كأنه الوحيد المستعد للظلام والجاهز له بكل مقاومة شموع تتراقص ربما ليس بفعل الهواء وحده فربما ثمَّة أرواحٌ غير مرئية تتنفَّس فتصلها أنفاسها كما تصل إلى الأوراق التي يدوِّنها الآن وفي الأثناء عَبَرَ ضجيج في الشارع لم ينتبه له ولفتتني ضحكة عالية لم تلفته ومِلتُ قليلًا لأعرف مصدرها ولم

ينهض هو وطالني صخب سيارة عابرة ولم يَطُله وصوت طبلة تدق عليها يد فنان خطفت سمعي لدقائق لم يعبأ به وكان هناك أثناء ذلك صوت مَزِّيكا يتسرب من مكانٍ ما ميَّزتُ أنها لـ شوبان وعرفت أنها رومانس لارجيتو وقلت راديو لأحد الجيران يعمل بالحجارة وبات الصوت مسموعًا أكثر كلما توغَّل الليل والظلام وكانت ليلة رومانسية تمامًا سماء ومَزِّيكا وظلام يقطعه قمر مكتمل وقطعت جلستي عدة مرات ولم أستقرَّ إلا حين سحبت رواية من الترابيزة الصغيرة أمامي وكنت أريد مشاهدة فيلم لكن النور مقطوع ثم شرعتُ في القراءة فكانت عيناي تدوران بين الكتاب وبين دانيال

9

سحبتني الرواية إلى عالمها وفقدتُ تركيزي تمامًا مع دانيال فمنذ الصفحات الأولى حكت الرَّاوِيَة عن ليلةٍ اختفى فيها زوجها وانطلقت القصة من مشهد نامت فيه الزوجة بيقين أن زوجها بجانبها وفي الحلم رأته مخطوفًا ومُهدَّدًا بالقتل وحين انتبهتْ عند الفجر لم يكن للرجل أي وجود ولا أثر لجسده على السرير وفي لحظةٍ تمنَّت الزوجة ألَّا يكون غيابه مجرد حُلم تمنت بالفعل ألَّا يعود ألا يكون قد عاد لكنها فزعت من أمنيتها وفي الدقائق الأولى من النوم قبل أن تغوص في بحور الأحلام قالت بصوتٍ مسموع يا رب يموت وكان الصوت هامسًا ومسموعًا فتصورتْ أنه أقلُّ من أن يستجيب له الله وحين استيقظتْ ولم تجده بجانبها جدَّدت الأمنية غير أنها في لحظةٍ استدركت وشعرت بالذنب كتبت أنه "لا يجب أن نتمنَّى الموت حتى لألَدِّ أعدائنا" وهي تفكر أن موتَ شخصٍ ليس انتصارًا لشخصٍ آخر رغم أنه إنهاء لمعركة وفكرتْ أن الموت يلحقنا جميعًا وهذا قدَر نلقاه فلا يصح أن يكون وسيلة للتشفِّي

ما الذي دفع المرأة لتمنِّي الموت لزوجها أين من الممكن أن يكون الزوج قد اختفى وهل اختفى بالفعل وهل الاختفاء بإرادته أم خارج هذه الإرادة في الصفحات الأولى كانت الأسئلة تتوالى عليَّ ورغم أني لست قارئَ روايةٍ بالأساس فإني رسمت الخطوط التي سيسير فيها السرد وأدركت

لعبة الكاتبة/الرَّاويَة وكان الانتقال في السرد يخلق أُفقَهُ مع كل عبارة فنحن أمام أزمة تتكوَّن عبرها الحبكة وتتصاعد الرواية مع راويةٍ كانت نائمة شبه عارية وبحثت بيدها عن زوجها بجوارها هذه ليست صورة امرأة تتمنى موت زوجها إلا لتتخلص من حبه وحين تقول الراوية "كنت أعطيه ظهري حتى لا تتلاقى أنفاسي مع أنفاسه" لا يمكن فهمها كنوعٍ من النفور فربما تمنحه أكثر ما يحب كأنها تفتح له الطريق لاختراق جسدها اليائس فالمرأة التي لا تحب زوجها لا تمنحه عناقًا من الوراء عناقًا يشبه مفتاح القصر المُوصَد مفتاح يحبه الرجل ويجد فيه الدفء ثمَّة رجلٌ يجب أن تكرهه المرأة لأنها تعشقه لأننا لا نحب بالضرورة مَن ينبغي أن نقع في غرامه فالحب كائن مستقل عنَّا حتى لو انتسب إلينا

ربما تشير الراوية إلى اختفاءٍ وليس هروبٍ رغم أن الهروب أحد احتمالين واردين لأننا في بعض الأحيان نسمع أمنيات الآخرين حين لا ينطقون بها لا أقول نراها في عيونهم فهذا كثير لكن نسمعها عبْرَ الأثير كأن الهواء لا يكتفي بمنح الحياة عبر الأكسيچين إنما أيضًا بحمل العبارات المنثورة والمتوارية إلى قلوبنا

تقول الرَّاوِيَة "هرب مني النُّعَاس ولم أحاول استعادته، تجولت في الشقة كأني وصلت إليها في التوِّ لأتعرف على كل أركانها. ثم أعددتُ فنجان شاي وجلست على كرسي

في الصالة من خلاله أكشف الشقة كاملة، واستعدت ذكريات قديمة عبر سلسلة من الصور المتراصَّة على الحائط، من بينها صور لي في مدن أجنبية، وصورة له وهو يتسلَّم ميدالية تفوق كموظف نموذجي، وصورة لنا أكثر الصور تعبيرًا عن حياتنا، ينظر فيها كل طرف إلى نقطة مختلفة عن الآخر". ليس في ذلك رغم الأمنية الواضحة أي رغبة في اختفاء الزوج أو موته إذ اليقظة عند غياب شخص تلخِّص الخوف من فَقْده واستعادة الذكريات حينها ليست إلا الحنين للحظةٍ دافئة والمرأة هنا لم يؤرِّقها الغياب فحسب وإنما سعت كذلك لمزيدٍ من اليقظة بشرب الشاي والجلوس على كرسي الأنتريه وليس الاسترخاء في السرير مع ذلك لا يصح أن أتعجَّل فالفصول الأولى في رواية ليست إلا مصافحة القارئ والترحيب به

10

كانت سيمفونية رومانس لارجيتو تتسرَّب في الظلام حتى ارتبتُ في أنها تنبعث من راديو ما إذ كانت تتكرر لساعاتٍ كأنها عزف كوني كخلفية لشيءٍ ما وفي لحظةٍ هُيِّئ لي أن شوبان نفسه يقف في الهواء في المسافة بين بنايتي والبناية المواجهة ويعزفها بنفسه وكان وجه شوبان يلوح في الأفق وانتبهتُ حينها أن ثمَّة شبهًا بينه وبين دانيال شبهًا مع شوبان نفسه وليس مع كورنيل وايلد في فيلم A song to remember الوجه النحيف المنحوت نفسه في شكل المثلث المقلوب والشعر الناعم الطويل قليلًا والمنسدل على أذنين العينان العميقتان والشاردتان أنفسهما والأنف الحاد ارتبتُ بعض الشيء في مسألة الشبه فلم أحدِّق في دانيال منذ فترة حتى بات صديقًا قديمًا انقطعت صداقتنا ثم عادت بعد سنوات من الجفاء وحين عادت شعر كُلٌّ منَّا بالألفة والحنين للماضي وسط شعور من الغربة يطوِّق كلينا

تجولت قليلًا بالشقة برغبة أكيدة في النوم وكان ظِلِّي على الحائط ضخمًا ومخيفًا كأنه ظل رجل آخر استعرته منه في العتمة أو كأن بداخلي شخصًا لا يظهر ظلُّه إلا في ضوء شمعة خافِت وسمعت حركة نابعة من المنور وكان مربعًا واسعًا محاطًا بأربع بنايات إحداها بنايتي وبين كل واحدة منها ممرٌّ يستخدمه الجيران كجراج وحين اقتربت

من النافذة كانت الأصوات تقترب وحين أطللتُ رأيتُ في أحد أركان المربع الغارق في الماء وفوق مسطبة يستخدمها البوَّابون أحيانًا مجموعةً من أربع أو خمس دُمى لصوص يتقاسمون على ضوء القمر غنيمةً مسروقةً ويتبادلون السِّباب بصوتٍ سعى أن يكون مكتومًا فكانوا أشباحًا يتحركون كأشباح ويهزُّون رؤوسهم كأشباح وفكَّرت أنهم سرقوا أحد مَحالِّ الذهب القريبة والآن يتقاسمون ليفترقوا ليواجه كل واحد منهم مصيره فردًا ولم أفهم كيف سيمكنهم الحركة في الشوارع الغارقة ولمَّا أغلقت النافذة كان النوم طار من عينَيَّ وفتح مساحةً واسعة للأرَق وعلى السرير شعرت بنفس الأرق يصطفُّ حول رأسي كطابور نمل يسعى إلى سُكَّر وفتحت عينَيَّ فجأةً وخفت من ظلي على السقف إذ كان وحشًا رأيت فيه ذاتي وقلت لنفسي بصوت مسموع أنا هذا الوحش الذي لا يظهر إلا في الظلام

11

أعددتُ فنجان شاي مثل بطلة الرواية لأثبت لنفسي أن سهري بمحض إرادتي وقعدتُ على كرسي الأنتريه بظهري للشارع ونظرتي للظلال المرسومة على جدار الصالة ولعبتُ بحركة أصابعي صانعًا حصانًا وفيلًا وذئبًا وامرأةً حاملًا وحيوانات خرافية وفكَّرت أن شقتي الصغيرة لا تسع أيًّا منها رغم أنها تسعها جميعًا على الحائط وخطر لي أن الظلَّ يحتاج إلى بعض النور ليظهر فلا ظل في العتمة المطلقة وخطر لي أن العبارة وُلِدت في شقة دانيال وعبرت إلى بيتي وفي لحظةٍ كأنها نداء من نفس البُعد نهضتُ وأطللتُ من النافذة على الشارع وتطلعتُ إلى شقة دانيال بالطابق الخامس وكانت رومانس لارجيتو لا تزال تصدح ودانيال يكتب على وتيرتها بسرعةٍ في سباق حقيقي لا ينتهي ورغم برودة الجو كان قد خرج من غطائه وجلس باعتدال في وسط ضوء شموع يكفي البناية بأكملها وظللت أتابعه مأخوذًا وأنا أدخِّن ومع أن السيجارة كانت لافتة في الظلام فإنه لم يلتفت إليَّ ثم نهض فجأةً واختفى في الشقة وظننته سينام

بعد دقائق معدودة ظهر مجددًا ووقف في النافذة يدخن سيجارة في مواجهة سيجارتي وفي هذه اللحظة كنت أنا وهو كُلٌّ منَّا من مكانه الصغير يضيء نقطة في عالم مظلم وكنا دليلين وحيدين على الحياة وسط كل هذا الموت

الساكن والمناقض لأنغام مقطوعة شوبان وحينها تطلَّع إليَّ دانيال وأطال التطلُّع من خلف نظارة النظر كمَنْ يحاول كشف وجهي المختبئ وراء ظلام الليل والخوف غير المُبرَّر وفي لحظةٍ خاطفةٍ ظننته قال لي شيئًا لم أسمعه فقلت له مساء الخير ورفعت يدًا يسرى ليكرر كلامه لكنه لوَّح لي بيدٍ يُمنى تلويحةً أدركتُ لا أعرف بأي حَدْس أنها تلويحة وداع ثم في ثوانٍ قليلة كان يلملم كل أوراقه ويضعها في حقيبة كتف لم أميِّز لونها واتجه نحو باب الشقة فسمعت من مكاني بالنافذة من قوة الرَّزْع إغلاق الباب ومن النافذة ظللت أنتظر خروجه من باب البناية وخمَّنت أنه لن يركب سيارته وكان تخميني صحيحًا واتجه دانيال يسارًا ثم يمينًا فوق التلتوار في اتجاه ميدان ڤيني بحقيبة معلقة على كتفه اليُمنى ويتأبطها قلت إنها الأوراق التي كان يكتبها على عُجالة والآن جاء وقت تسليمها إلى شخصٍ بالذات ولا بد أن يكون الآن فلا ينتظر إلى الصباح الآن في ظلام دامس حوَّلَ المدينة بأسرها إلى غابة موحشة إلى مدينة أشباح إلى مدينة موتى بعد أن كانت مدينة خيوط يتدلى منها ماريُونِتّ

12

ما الذي دفعني كأني مسحور إلى الركض على السلم بملابس البيت وراء دانيال وكيف تجرَّأتُ في هذا الشتاء والظلام وفي الأرض الغارقة بمطر صنع بحورًا ابتلعت جثثًا كما يبتلع البحر المتوسط أجساد المهاجرين لا أعرف سببًا لكني أعتقد أن الأديان السماوية تؤمن بمصير الإنسان المكتوب سَلَفًا وأننا لا نخرج عن كتاب القدَر المحتوم وأن اختياراتنا نفسها ليست إلا المكتوب في الكتاب الأزليّ نفسه ورغم أني أؤمن بالصدفة فإني لا أستخفُّ بالعلامات وكانت العلامة أن دانيال يُحزِّم حقيبة ليرحل وأن واجبي أن أنقذه من هلاك محقق ولم يكن في ذلك أي اختيار إذ أدركتُ أن خيطًا يربط بيني وبين دانيال وأن حركته هذه سيتبعها بالضرورة حركتي لاقتفاء أثره

انتعلت حذاءً رياضيًّا بسرعة ونزلت على السلم وتقافزت على ضوء كشَّاف صغير من درجةٍ إلى أخرى كفأر وفي الشارع تلفتُّ حولي فلم أرَ ولا حتى شبحًا واحدًا على جدران بناية واتجهت يمينًا فرأيت كلبًا وحيدًا يعوي بخوف واضطراب تحت شرفة الطابق الأول عندما لمسته كان مبللًا ففهمت أنه ميت من البرد وخلعت چاكتي السبورت وسترته به فنظر لي نظرة امتنان كطفل وحين واصلت السير سار ورائي كظِلٍّ وانحرفت يمينًا آخر حيث اتجه دانيال

نحو ميدان ڤيني ومن مسافة بعيدة وتحت قمر هو النور الوحيد رأيت ظله كشبح يخترق الظلام أو يودِّع الظلام من ورائه وفيما كنت أتبعه مسرعًا وأسير فوق ألواح خشبية مرتفعة عن الأرض مسافة متر أو يزيد محاولًا تجنب الماء الراكد سمعت صوت صرخة مجلجلة صرخة واحدة نابعة من حنجرة وحيدة صرخة تشي بألم غائر وحسرة لم تهز الحي فحسب بل هزت قلبي حتى كاد يتوقَّف لا أعرف إن كان أحد تطلَّع من نافذة أم لا لم أَرَ أحدًا رغم أني بحثت بعينين يائستين عن مَارٍّ أو فضوليٍّ في الشرفات فلم أرَ إلا الكلب ورأيت في عينيه اللامعتين دموعًا أثارت دموعي وحينها انتبهت إلى أني أعيش في مدينةٍ يسكنها الدُّمَى وأني لو رأيت أحدًا الآن سيكون دُمْيَة معلَّقة في سقف شرفة والتصقتُ من الخوف بجدار بناية رغم أن الظلام كان كفيلًا بحمايتي وكان دانيال بالضبط على حافة الميدان وكان يفصلني عنه ما يزيد على مائة متر لكني رأيت شبحه بالفعل أو هُيِّئ لي ووقفت لدقائق أستردُّ نَفَسي وأحاول تنظيمه لأسيطر على رعب سرَى في ضلوعي وفكرتُ أن أجلس على ركبتَيَّ لكني تراجعت حتى لا أُصاب بإغماء وأثناء ذلك سمعت صوت دانيال سمعته جليًّا سمعته يستنجد باسمي ويقول يا دانيال أنقذني يا دانيال سمعت صوته وميَّزت ما يقول رغم تهدُّجه وخفوته فهممتُ بحماسٍ وخوف وسرتُ بخطوات مترقبة لم أَرَ دُمى خضراء مهمتهم

حراسة السفارتين لم أَرَ حراس البنايات كأن المدينة خُلِقت
في هذه اللحظة وأنا آدم تائه في الظلام تائه في أرض غريبة
تائه في صحراء بلا نجوم فلا أعرف حتى ظِلِّي

13

تقدمت نحو الميدان ورأيت عددًا هائلًا من سيارات مصفوفة بالعرض كحواجز تمنع الوصول إلى نافورة توقَّفت عن ضخِّ الماء بالفعل واقتربت أكثر بخطوات مرتجفة كطفل يخرج للمرة الأولى إلى الشارع ويراقب فطريًّا خطواته فرأيت السيارات في شكل دائرة تطوِّق الميدان وكانت سيارات ملتصقة بعضها ببعض وبدا لي أنها من الماركة نفسها وباللون نفسه وحين حدَّقتُ انتبهت إلى أجساد راقدة حول النافورة أجساد عارية ومستسلمة فلم أفهم هل أنا أمام طقس شيطاني أم أمام مذبحة وقفز الكلب على سيارة فيما كان يتملَّكني الرعب وشعرت بألم في مؤخَّرة رأسي وفي خُصيتَيَّ ثم قررتُ أن أبتعد حين رأيت قطعًا بيضاء على الأرض أدركت سريعًا أنها قمصان أو ملابس داخلية واستدرتُ بالفعل معطيًا ظهري للميدان وخطوتُ خطواتٍ أولى هربًا من مسرح الجريمة وبررت لنفسي بأنه تصرف فِطْري حتى لا أُقتَل أو حتى لا أُتهَم بالقتل كوسيلة سريعة لتقفيل التحقيق كالمعتاد ثم ما لبثت أن تراجعت ووخزني ضميري واستجبت لعواء الكلب الذي ناداني كأنه صوت دانيال ذاته وفكرتُ أن دانيال على حافة هذه الدائرة أو بداخلها وأنه يحمل رسالة قالها لي ولم أسمعها وربما بوسعي أن أمدَّ له يد العون وربما بوسعي أن أنقذه من موت محقق إن كان لا يزال حيًّا وفكرتُ رغم أنه لا أثر لحَيٍّ في

الميدان ولا في الشرفات أني في خطر حقيقي واعترفت لنفسي بأني لستُ شجاعًا وأني جبانٌ بما يكفي لأرحل ومع ذلك أقدمت لأرى الكارثة

قفزت من بين سيارتين وعبرت إلى داخل الميدان وفي لحظاتٍ بعد أن دُسْتُ على بناطيل وقمصان ملقاة على الأرض ومبللة كنتُ أمام عدد هائل من أجساد عارية يغطيها الماء لرقبتها وبأفواه مغلقة على أعضاء ذَكَرِيَّة وقد ودَّعوا الحياة ففكرت أن أضيء الكشاف الصغير لأتعرف إلى أيٍّ منهم لكنها فكرة حمقاء لأن الضوء القليل في هذا الظلام سيلفت النظر إليَّ وأنا لا أعرف إن كان الجُناة لا زالوا هنا أم غادروا فَرُحتُ أبحث بعينَيَّ عن دانيال تحت قمر كامل فقادني إليه الكلب وعثرت عليه بكامل ملابسه بحقيبة الكتف تحت ذراعه كأنهم قتلوه وهو متشبث بها وكان دانيال قد فارَق الحياة برصاصة على عكس القتلى الآخرين المذبوحين حينها توقف قلبي من الخوف وتملَّكني بكاءٌ هيستيريّ وغاب العالم من حولي لدقائق وحين انتبهت أدركت أني يجب أن أهرب من هنا ليس خوفًا فحسب من تورطي في جريمة لم أرتكبها إنما أيضًا لأن منظر القتلى كان مخيفًا ولأن رائحة الدم حتى لو كانت لدُمى كانت خانقة إذ هي رائحة لها أذرع تلتفُّ حولي وتُكتِّفني وتُعجِّزني عن الحركة فقلت لدانيال انهض يا دانيال وربما هربت دموعي على وجهه ورأيت الحسرة على شفتيه كمَنْ ودَّع

الحياة بغير رضا ودَّعها فجأةً كأن الموت قطع طريق الحياة رغم أن الموت هكذا دائمًا قطار يقطع قطارًا وفي لحظة وفي طرفة عين وقبل أن أرحل سحبت الحقيبة من تحت ذراعه كأمانة ائتمنني عليها حين ناداني باسمي وركضت وركضت وركضت كأن المسافة من الميدان للبيت يجب أن تنتهي في طرفة عين أخرى كما تنتهي حياة دُمْيَة كما انتهت حياة دانيال وأثناء ذلك لاحظت أن أبواب السيارات مفتوحة لكنها خالية من أي ظل وانتبهت إلى أن دانيال نفسه ربما قد وصل بعد انتهاء المذبحة لا أعرف وربما كان شاهدًا على مَنِ ارتكبوها فتخلصوا منه ثم فكَّرت أنه شريك فيها ما كنت أعرفه ساعتها أنه خرج في ساعة مريبة بحُزْمَة أوراق لا أعرف محتواها وأنه قُتِل وبقي بملابسه وأن طريقة قتله مختلفة عنهم وأن الحقيبة مبللة بماء المطر وأن الكلب ينظر إليه بعينين دامعتين

14

وصلتُ إلى البناية بقدمين مبللتين وثقيلتين كأني أسير في بحر وفي الشارع لم أَرَ أحدًا وأمام البنايات لم أَرَ أحدًا وداخل البيوت لا أحد يتحرك ولا حوار بين اثنين ولا همس لا شباب يدخنون الحشيش ولا بوَّابون يتدفَّئون على الحطب لا ولد وبنت يتبادلان القبلات في مدخل عمارة ولم يتبقَّ من المدينة التي أعرفها إلا الكلب الذي غطيته بچاكتي وراح يرافقني في رحلة اكتشاف الجريمة ولو أن العالم انتهى بالفعل كنت سأعثر على الأقل على بقاياه ثم انتبهتُ إلى أن معزوفة رومانس لارجيتو مستمرة ومستمر أيضًا عدم معرفتي من أين تنبع لكن شبح شوبان الذي يشبهني ويشبه دانيال كان قد اختفى

جلست على كرسي النافذة وتطلَّعت إلى بيت دانيال فيما أرتجف من البرد والخوف وكانت النافذة مفتوحة وظِلُّ المرأة يتثاءب والشموع لا تزال مُضاءة ومع حركة الهواء كانت ظلالها تكوِّن أشباحًا على الحوائط والمشهد كان جنائزيًّا جدًّا كأن في منتصف الغرفة تابوت دانيال محاطًا بشموع وأنا من بعيد أصلي عليه فبكيت وأنا أسمع نبضات قلبي المرتجف ورائحة الموت تملأ أنفي وتقف في حنجرتي

وضعت الحقيبة على حِجْري وجففتها بمنشفة بقلبٍ يدعو ألَّا تتضرر الأوراق وفكرت في صندوق باندورا وأني

بفتحها ربما أفتح بابًا على الجحيم ولم أكن أعرف إن كنت أريد ذلك أم لا فالحقيبة مرتبطة بالقتل وبِسرٍّ لا أعرف إن كنت أريد الاطِّلاع عليه والمعرفة ليست الطريق إلى الجنة إنما بالعكس تمامًا هي الطريق إلى الألم وكنت أعرف أني كلما عرفت أكثر اكتشفت أني أعرف أقل حينها استرخيت على أمل أن يهاجمني النوم فأستسلم غير أن صورة دانيال والدم يهرب من قلبه كانت مخيفة وفكَّرت إن كنت أنقذت دانيال بإنقاذ أوراقه أم أني تخليت عنه بالتخلي عن جسده ثم قلت لنفسي بيني وبين العالم جدار ليس بوسعي تجاوزه ولا صنع ثقب فيه حتى الثقوب التي تحدث ضد إرادتي تُمرِّر الفِخَاخ وراء الفخاخ وأمام كل ثقب لا أملك إلا سدَّه بطبقة من الإسمنت هكذا قررت منذ زمن أن أنعزل عن الحياة والآن ألوم نفسي لأني استسلمت لضعفي واتَّبعت دانيال لكن دانيال هو قدَري هو ظِلِّي وهو شبحي هو جسدي ودانيال هو القطعة التي مني غير أنها منفصلةٌ عني

15

دخَّنت الكثير من السجائر وحاولت إرجاء فتح الحقيبة وأضأت شمعة إضافية وعُدت إلى الرواية مرةً أخرى لأعرف قصة المرأة التي اختفى زوجها أو هرب وكشفت الراوية أنها تستبعد الهروب وتُرجِّح الاختفاء ورغم الراحة التي شعرتْ بها لعدم وجوده بالبيت فإن قلقًا داهمها ودفعها لتُهاتِفه على الموبايل لتكتشف أن التليفون مغلق وبداية من هنا يتراوح السرد في هذا الفصل بين عالمين: عالمها الداخلي بأفكارها حول العلاقة الزوجية وذكرياتها مع الرجل نفسه ورجال آخرين وبين الواقع المغلق والغامض واحتمالات أسباب الاختفاء بعبارات قليلة سرَّبت الراوية سبب تعاستها الزوجية وعرَّفت التعاسة بأنها "تراكُم ذكريات سيئة حاولتُ طوال السنوات الماضية نسيانها أو التخلص منها حتى لا أبلغ قمة التعاسة" أثناء ذلك فيما كانت غارقة في زواج تشعر فيه بانها لا تدفع إلا جسدها كانت ثمة آفاق أخرى تُفتح أمامها "كأن الرجال يتمتعون بأنف يشمون بها رائحة المرأة التعيسة فيقتربون منها بعضهم يقترب ظنًّا أنها صيد سهل والبعض الآخر ربما بدافع الإنقاذ. لا شيء يُشبع غرور الرجل مثل شعوره بأنه المخلِّص. مع ذلك يكتفي الكثيرون بإنقاذي من الغرق وإلقاء جسدي على الشاطئ، دون أن يمنحوني طريقًا أسير فيه، أو بيتًا آمنا أغيِّر فيه ملابسي" لذلك كانت الراوية تلعب لعبة الإغواء من دون أن تخطو

خطوة بعدها للأمام ليس لأنها لا تريد أن تخطو فحسب إنما لأن قدميها مثقلتان بأكياس رملية لا تسمح لها بالخطو "ولن يحررني من ذلك إلا حب عظيم، حب يشبه الفيضان بقدرته تقويض حصني المسلَّح من الخارج الواهن والرملي من الداخل" ومن سياق الرواية أفهم أن المرأة لا تعاني نقصانَ الحب ولا التمتع بالحياة وإنما تعاني القدرةَ على تلقِّي كل ذلك لأن تعريفها للأشياء ليس نفس تعريف الزوج إذ الحب ليس الجنس تحديدًا والسعادة ليست ركوب طائرة أو مشاهدة البحر وإنما مع مَنْ نفعل ذلك ومدى اختيارنا لشكل هذه الحياة

مع شقشقة الصبح استسلمتُ وفتحتُ الحقيبة وقلتُ لنفسي إن الإنسان كائن خطَّاء وفضولي وأول ما عثرت عليه بداخلها كان سي دي مُدوَّنًا عليها رومانس لارجيتو وميدالية مفاتيح معلقًا بها مفتاح البناية والشقة ومفاتيح صغيرة لأدراج مكتبه في العمل وظرفًا كبيرًا أصفر مغلفًا كطَرْد ومكتوبًا عليه يُسلَّم ليد دانيال ولا بد أنه يقصدني أنا وداخل الظرف رُزْمة أوراق بيضاء مكتوبة بقلم حبر أسود ومنمق وواضح وبعبارات لا يفصل بينها علامات ترقيم وتحت عنوان **دانيال في الأرشيف** وفيما كانت الدُّمَى تفتح النوافذ والشرفات لتفتتح اليوم وسريعًا ما ستصيبها الصعقة من المذبحة أبدأ أنا قراءة هذه الأوراق

العصر الثالث

تقرير عن دانيال في الأرشيف

1

في منتصف يناير من عام 2002 وصلتُ إلى مصلحة الأرشيف السري شابًّا في الرابعة والعشرين وأجُرُّ ورائي تاريخًا قصيرًا ومشوهًا: حادثة قتل ارتكبتُها وأنا في العاشرة كانت رَدَّ فعلٍ طبيعيًّا وكانت انتقامًا من هذا الرجل الذي اعتدى على إبراهيم ودفعه إلى الانتحار وهي حادثة كان عقابها صفعة من أبي أدت إلى بتر جزء من لساني ونُدْبَة أبديَّة تقطع خدِّي الأيمن كأخدود وسنوات من العزلة تخللها مرض أبي وعجزه وسنوات من تأنيب الضمير ومحاولة التصالُح مع ذاتي بلا جدوى

كنت حين وصلت إلى مصلحة الأرشيف المركزي قد تخرجت في الجامعة منذ عامين بلا عمل بلا طموح بلا أمل في الغد بأبٍ وأُمٍّ ارتاح جسداهما في قبرٍ على أطراف المدينة بعد سنوات من التعاسة بسببي وكنت بالتالي أعيش وحيدًا أتنعَّم في شقةٍ ربما لا أستحقها تتكوَّن من حجرتين وصالة واسعة لا يشاركني فيها إلا صوت إبراهيم وشبحه ومجموعة صور فوتوغرافية لأبي وأمي في كل مكان وصور أخرى لي تجمعني بهما قبل أن أبلغ العاشرة وقبل أن

تصيبني لعنة قابيل

حينها كنت أعرف أن الحياة مُنحت لي من دون أن أعرف طريقة تشغيلها واستخدامها وأقصى ما كنت أتمناه أن يمرَّ اليوم ليسلِّمني إلى الغد سليمًا دون نقصان كما فعل الأمس مع اليوم وكما فعل جدي مع أبي وكما فعل أبي معي لكنني كنت قررت أو قرر القدَر بالنيابة عني أن أوقِّف الدائرة عندي فلا أمنح الحياة إلى أحد وكنت استسلمتُ لفكرة أن أسلِّم نفسي للأيام يسلِّمني أحدها إلى الآخر وأثناء ذلك كنت أعلم أن سعادتي انتهت في سن العاشرة وأن انتهاء السعادة كان يعني أن الممكن ليس إلا حياة هادئة والحنين لسنوات أذكرها كأنها حدثت بالأمس وكان الممكن حياة تعيسة تطاردني فيها الكوابيس والمخاوف وأسقط فيها في فِخَاخ الهزيمة واليأس كأيِّ هاربٍ من العدالة يعرف أن لا سببَ لإحباطه إلا امتلاكه وحده لحقيقة براءته وأن امتلاك هذه الحقيقة لا يعني شيئًا لأنه ليس بوسعه أن يثبتها أبدًا وأن امتلاكه وحده للحقيقة في مواجهة العالم الذي لديه حقيقة أخرى يُشكِّكه في عدالة قضيته

وأثناء ذلك كنت أدرك شيئًا فشيئًا أن السعادة فعلٌ ماضٍ مهما انتبهتُ إلى وجودها في الحاضر وأنه لا وجود لها في المستقبل إذ يحلُّ محلها التمني وكنت أدرك أني أنظر إلى ماضيَّ البعيد وأقول هناك كانت السعادة وأسترد الشعور لدقائق وأستحضر الصور وأقول هناك كانت السعادة وكنت

أدرك أني أحصِّل السعادة بأثر رجعي كأن العقل البشري عاجز عن إدراكها إلا بمرور الزمن وكنت أدرك أني أحصِّل التعاسة بأثر رجعي لكن على مدى زمني طويل وكنتُ أدرك أن كل تفاصيل الماضي الصغيرة تغدو سعاداتٍ متفرقةً لا نروم في حاضرنا إلى خلق شبيهاتٍ لها ولم يكن بوسعي أن أخلق شبيهات لها وأن تفاصيل الماضي الصغيرة ملأى بالتعاسة

2

وصلت إلى الأرشيف السرِّي بمحض صدفة غريبة عندما قررت في ديسمبر 2001 أن أهاجر في العام الجديد وكنت أقول لنفسي سأعتبر الهجرة مولدًا جديدًا كأن لحياتي زِرَّ Restart وأنا ضغطت عليه وقلت سأمحو كل ما عشته هنا كفاقدٍ للذاكرة وكمُتبرِّئٍ من حياته وتاريخه لذلك منذ الأيام الأولى في يناير 2002 رحت لأستخرج جوازَ سفرٍ كخطوة سأتبعها بتوثيق شهادة تخرُّجي من الخارجية وترجمتها وفيما كنت أقف في طابور طويل كل من فيه يبحث عن الهرب كطابور نمل موعود بالسُّكَّر ظهر فجأة أحد أعمامي البعيدين وكان موظفًا كبيرًا في مصلحة الجوازات وكان يزورنا من آنٍ لآخر قبل أن يرحل أبي عن الحياة في عام 92 وظل على اتصال بنا حتى ماتت أمي عام 98 وكان يتمتع بسُلطة لا أعرفها ويتمتع بكثير من الوُدِّ والبشاشة وبشيءٍ من الغموض فعرفني الرجل بذكائه الحاد وذاكرته القوية واقترب مني بكل وُدٍّ وقال يا دانيال وعانقني كأني ابن له وقال لم يتغير شكلك منذ كنت طفلًا نفس النحافة والنظرة الشاردة وكان رقيقًا في ابتسامته وفي نبرته الأبوية حين طلب مني الاستمارة ودعاني إلى الجلوس بمكتبه وسألني أولًا إن كنت لا أعمل فقلت بخجل وبهزة رأسٍ لا أعمل وفكرت كيف سأعمل بنصف لسان مبتور وقلت لنفسي سؤاله محق لأني أيضًا كيف درست لغات وأنا بلسان مبتور

ولن يعرف الرجل أني كنت أحب الهروب إلى لغةٍ أخرى والاختباء فيها وأن لغة أجنبية مثل مدينة جديدة تدخلها وفيما تتعرَّف عليها تتعرَّف إلى نفسك وفهمني الرجل دون إحراجي وقدَّم لي عرضًا بوظيفة قال إنها تليق بي وتناسبني وقال إنها مفصَّلة على إمكاناتي ثم إني أعرف لغات وهذا من شروط الوظيفة لأني ربما أترجم بعض المستندات التي تخدم الحكومة

عمي لم يَقُل ما الوظيفة وأنا لم أسأل ولم أفكر إذ سمعت صوت إبراهيم يقول لي وافق يا صاحبي بصوت طفولي مبتسم كان قريبًا جدًّا من أُذُني وكررها مرتين حتى ابتسمتُ أنا وأومأتُ لعمي بالموافقة وفكرتُ أن الموت في الوظيفة أفضل من الموت في البيت وفكرت أن عمر الإنسان ينتهي في كل الأحوال فلأوزعه على عدة أماكن وفكرت أنه لا بد يختار لي وظيفةً لا أحتكُّ فيها بجمهور ولا أضطر فيها لاستخدام لساني ولا لمداراة ندبتي ثم فكَّرت أن الرجل يعرف عني أكثر مما أظن ولم أستبعد أن يكون أبي قد حكى له حادثة طفولتي لكن فوق كل شيء فكرت أن إبراهيم وافق وهو يعرف كل شيء أكثر مني وفكرت أنه في مكانٍ يرى منه العالَم باتساعه وأنا في نقطة محدودة

وافقت في النهاية وتركت للرجل رقم تليفون بيتي الذي لم يتغير أبدًا ولا بد أنه يحتفظ به (وسأضطر للرد هذه المرة) وسلَّمني استمارة جواز السفر لأمزقها بنفسي ثم

انصرفت لأتجول بشوارع وسط المدينة بلا قِبلَة بلا نيَّة للوصول إلى أي مكان بلا أي تصور عن الغد وكنت أدخن وأتأمل البنايات وأنا أظن أن هذه هي المدينة وأني أعرف هذه المدينة وأعرف شوارعها ومَحالَّها ومقاهيها ومصالحها الحكومية وشركاتها الخاصة ووظيفة بناياتها لأني عرفتها وحدي في تجوالي المستمر لسنوات تعادل عمري لكني سأعرف بعد ذلك أن ثمَّة مدينةً أخرى تعمل بشكل مختلف وأن هذه البنايات ليست إلا قشرةً تخبئ وراءها أسرارًا وأثناء سيري كنت أرى الناس ناسًا عاديين يصحون وينامون ويأكلون ويحلمون ويحبون ويكرهون ولديهم طموحات وتطلعات ومخاوف ثم بعد ذلك سأعرف أن الناس حين تراهم من الأرشيف ليسوا هم نفس الناس حين تشاهدهم في شوارع المدينة لكني في ذاك اليوم فكرت في شيء آخر وقلت لنفسي إني تراجعت في دقائق عن فكرة بيع شقة أبي والهجرة كأن الفكرة لم تولد أبدًا وخطر لي أن ما أريد أن أهرب منه ليس في المدينة وليس في الشارع الرئيسي وليس في بيتي ولا غرفتي لأن ما أريد أن أهرب منه يسكن بداخلي وسيبقى للأبد لأني سأحمله معي في كل مكان وحينها همس إبراهيم في أُذُني بأن الوظيفة أفضل وهمس دانيال في أذني بأن الوظيفة أفضل وجاءت الأمطار فقلت موافقة السماء وحين أغرقتني الأمطار قلت لتغسل الماضي وتطهر الدم وأُولَد من جديد وقلت الوظيفة اعتذار لأبي لأن بالوظيفة تبدَّل المصير الذي توقَّعه لي وخاف من تحقُّقه

رغم أني ساعتها لم أكن أعرف هل سأتجنب ذاك المصير بهذه الوظيفة أم أن هذه الوظيفة بالذات ستكون وسيلتي لتحقيق هذا المصير نفسه

3

بعد يومين أو أسبوع لا أعرف فأنا لا أعرف تقدير الزمن استقبلت مكالمة من شخص مجهول وتوجهت إلى مصلحة الأرشيف السرِّي المختبئة تحت بناية مصلحة الأحوال المدنية المركزية وهي بناية ذات معمار حكومي خالية من الشرفات ومرشقة بنوافذ زجاجية صغيرة وليست كما تخيلت فليست ضخمة وهائلة مثل الأبراج الحديثة إنما ثلاثة طوابق فوق الأرض قد يصل الطابق إلى 600 متر مربع وطابقان آخران تحت الأرض قد يصلان إلى أربعة أضعافه على الأقل ويصل بينهما سُلَّم حجريّ يتعمَّد أن يبدو قديمًا ومهجورًا وحين وصلت في التاسعة صباحًا وقفت عند الباب الذي حدَّده لي المتصل وبيدي حافظة أوراق تضم شهاداتي الدراسية وصورًا منها وسيرة ذاتية في نصف صفحة وفي التاسعة وخمس دقائق اقترب مني شابٌّ ثلاثيني ومن دون أن يسألني عن اسمي رحَّب بي سريعًا وقال ورايا يا دانيال وتقدمني فاتبعته إلى آخر الممر وأمام باب حديدي ضغط على أرقام سرية فتحتِ الباب وهبطنا بالسلم الحجري لنقف مرةً أخرى أمام باب آخر وضغط من جديد أرقامًا سرية وفكرت أن الطابق السُّفليّ هو الأهم لذلك يبقى في الظل بعيدًا عن الضوء بعيدًا عن متناول اليد ومرمى العيون وكان الطابق السفلي كالمتاهة ممرات تفتح على ممرات ودهاليز تفتح على دهاليز وليس ثمة غرفة واحدة بأربعة جدران إنما

أرض متسعة مستطيلة لها أفرع يمينًا ويسارًا كأنها أجنحة وتكاد تظن أن لا نهاية لها والمسافة بين المكاتب كبيرة ومريحة فيبدو الموظفون كأنهم في جُزُر منعزلة وهنا ممنوع التدخين ممنوع الضجيج ممنوع التصوير وفي أحيانٍ كثيرة ممنوع الكلام وفهمتُ أن الطابق السفلي يحتفظ بدرجة حرارة ثابتة في الصيف والشتاء بالجوِّ الملائم للحفاظ على الملفَّات القديمة وعلى جدران البناية وعلى حياة البشر الذين يمكثون هنا خلال ساعات العمل الحكومية والساعات الإضافية وأحيانًا البيات في حالات ضغط العمل وثمَّة لافتة صغيرة مُدلَّاة من السقف تحمل كلمتين بخط الرُّقْعَة **مصلحة الأرشيف**

قادني الشاب الثلاثيني إلى المكتب الأول على اليسار عند المدخل حيث يجلس رجل عجوز افترضت أنه المدير فدعاني الرجل إلى الجلوس وأشار إلى البوفيه وأَذِن لي أن أعدَّ لنفسي مشروبًا لأن المكان بلا سُعاة وكل العاملين هنا موظفون فشكرته دون أن أنهض من مكاني وكنت متوترًا من طبيعة المكان ولا أعرف إن كان هو مُستقرّ العمل أم مكان من أجل المقابلة فحسب وسألني عن اسمي بالكامل ودراستي وسكني ووظيفة أبي وإن كنت أنتمي إلى أي تيار سياسي أو ديني ولم يلتفت لصعوبة نطقي وللصخرة التي أجرُّها بلساني كلما حاولت نطق كلمات معدودة ومختصرة ودقيقة دون استفاضة ولا إطناب أو ربما

التفت وتجنَّب السؤال عن السبب وما سأعرفه في نهاية المقابلة أن ما اعتبرته نقيصة طوال عمري ما كان يسبِّب لي الخجل ويدفعني إلى الهروب غد ا الآن ميزةٌ كبرى إذ بَتر جزء من اللسان أو بتر اللسان مجازًا شرط العمل هنا فيا حبَّذا لو كان مبتورًا حقيقةً ثم طلب مني أوراقي وفجأة كأنه لاحظها في الحال سألني عن النُّدْبَة التي كنت أحاول مداراتها بإطلاق لحيتي في الأيام العادية لكن في مقابلة كهذه اضطررت لحلقها حتى لا تُفسر بأنى أنتمى إلى جماعة إسلامية فقلت: حادثة من أيام الطفولة وهو تجاوز الرد سريعًا كأنه يعرف الحقيقة وأخيرًا سألني عن حياتي الاجتماعية التي لا بد يعرفها وقلت أعيش وحيدًا لأني يتيم الأبوين وبلا صديق أو حبيبة وكان يسجل بيانات إضافية على ورقة السيرة وفي النهاية كوسواسٍ لا يستطيع مقاومته عاد إلى الندبة في خدي وسألني عنها فقلت مرةً أخرى حادثة من الطفولة وشردت في كفِّ أبي الضخمة وهي تنزل على وجهي وتذكَّرت طعم البُنّ المخلوط بالدم وهو يعبُر من خدِّي المشقوق ليمتزج بلعابي وصرخات أمي وفزعها ثم تلفتُّ حولي وفكرت أن الطابق السفلي مختلف جدًّا عن الطوابق العلوية وأنه مُعتنى به أكثر وأكثر انعزالًا ومترعًا بالرفوف والدفاتر والملفات وفكرت أن هذا طبيعي لأنها مصلحة الأرشيف وقطع شرودي صوتُ الرجل العجوز وهو يقول: مقبول ثم شرط الوظيفة الصمت التام فلا أحد يخرج من هنا إلا ميت وأومأت بالإيجاب وحدَّق فيَّ الرجل

من خلف نظارة سميكة كأنه يقرأ مستقبلي فخفتُ أو يقرأ ماضيَّ فخفتُ بنفس الدرجة وقال هنا مصلحة الأرشيف لكنه ليس أي أرشيف هنا قلب الدولة وكان هذا ميثاق العمل

4

في صباح اليوم التالي قدَّمني المدير إلى الزملاء بأرقامهم وكان عددهم أربعين من دون المدير الذي هو الرقم صفر لكننا نناديه بالمدير أما باقي الموظفين فأرقام لها نظرات شاخصة وقلوب لا تنبض وبدايةً من هذا اليوم صار رقمي 41 وبعد دقائق سمح لي رقم صفر بالتجول في الأرشيف واستكشافه في صمت وأشار لي إلى مكتبي وطلب مني أن أقرأ الملف الموضوع عليه وكان تعليمات أوَّليَّة لمعنى الأرشيف وملخَّصًا للمهام الوظيفية التي لا تقتصر على الأرشفة فحسب وإنما كذلك ترجمة بعض المعلومات المهمة أو التقارير الإخبارية أو الحوارات مع شخصيات لهم ملف لدينا أو يقعون في دائرة الضوء ثم بدأت التجول هناك لأعرف أن الأرشيف طابقان يربطهما سُلمٌ مُتوارٍ يقع في نهاية الممر بجوار مكتبي وانتبهت إلى عدد هائل من الأرفف والملفات والجرائد واثنين وأربعين مكتبًا فوق كل منها كمبيوتر وطابعة وملفات يكاد الجالس يختفي وراءها وخجلتُ من جوِّ السائح في مدينة غريبة فجلست لأراقب بعينَي ما يدور حولي

كانوا يتحدثون فيما بينهم بشفرة وبرموز وأكواد هم يعرفونها وأنا لا أعرفها ولا حتى كنت أتخيل أن بوسعي أن أعرفها وفكرت في أعمارهم فكانت تتراوح في يناير 2002

بين الثلاثينات وبداية الخمسينات والمدير الوحيد الذي يبدو تجاوز الستين أما أصغر الموظفين الذي استقبلني بالخارج فكان يكبُرني بعشرة أعوام تقريبًا وكان شابًّا في الثلاثينات يشبه الباقين بكرشه وسمَّانته ورأسه المدوَّر وبياضه ونظارته وكان كُلٌّ منهم يعيش في عالمَه الخاص منهمكًا في عمله دون ضغط وكان انطباعي الأول أنهم مختارون بعناية أو أنهم دخلوا جميعًا نفس الماكينة فخرجوا بنفس المقاسات والطول والعرض وأن الماكينة انتزعت عنهم أعضاءهم الداخلية أو أنهم اختاروهم بعناية لأنهم أصلًا من دون قلب وكنتُ حينها قد قرأتُ عن أناسٍ اكتشفوهم في أرضٍ لا أذكرها يبدُون بشرًا لكنهم من سلالة أخرى أو ربما مرحلة من مراحل تطور الإنسان وقلت لنفسي يا دانيال ماذا يفعل الناس حين يموتون وجاوبت نفسي بأنهم يأتون إلى الأرشيف السري ليعملوا في أَرْشَفة الملفات لأنهم بموتهم يتحوَّلون إلى آلهة أو إلى ملائكة أو إلى شياطين يعدُّون الأنفاس ويدوِّنون الأخطاء وبدت فكرة أنهم موتى حقيقية ومحسوسة إذ كانوا يسيرون كالموتى وينظرون كالموتى ويجلسون أمام الكمبيوتر كالموتى وقلت إني ذات يوم سأكون مثلهم بالضرورة وقلت إني حين أموت وسيحدث ذلك قبل أن أبلغ الأربعين سأعود إلى هنا وأجلس في المكان ذاته وأنظر مثلهم بعينين لا تبصران وقلب لا ينبض وحين تأملتهم بعمقٍ أكبر تذكرت حينها تمثالًا خشبيًّا لميت بالمتحف المصري كنت شاهدته في طفولتي وكان ينظر

نظرةً ميتةً إلى الأمام وفوق رأسه ذراعان قالت لي ماما إنهما علامة الروح وأنا عرفت أن التمثال لميت كما أعرف الآن أن الجالسين على مكاتبهم موتى وليس في ذلك مجاز فأنا عرفت موتى لا يزالون أحياءً مثل إبراهيم الذي مات في حادثة ثم عاد أكثر وسامةً وذكاءً واطِّلاعًا على الحقيقة وإن كانت وظيفة إبراهيم بعيدة عن الأرشيف فإنه بطريقةٍ ما مَنْ كلَّفني بهذه المهمة كأني يده كأني نائب عنه أو كأنه من مكانه البعيد عن الأرض يرى مستقبلي ويعرف أني في الغد سيكون مصيري في هذه البناية السرية بعد أن أودِّع الحياة

وعلى مكتبي فتحت أوراقًا عن طُرُق الأَرْشَفة تقول إن الأرشفة الورقية هي الأضمن والأكثر أمنًا فلن تصل إليها يد وغير قابلة للاختراق والأرشفة الصوتية والمرئية ينطبق عليها ما ينطبق على الورقية وكانت شرائط الڤيديو والكاسيت ثم السِّيديهات في مكان آمن على الرفوف لكن الأمر ليس بنفس الأمان في حالة نقلها للكمبيوتر بطريقة الدَّجْتَلَة Digitalization ومع ذلك بدأت مصلحة الأرشيف بحذر وبمقاطعة قاطعة للإنترنت تستجيب لتطور العصر ليس فقط لأن الأرشفة الدِّجِيتال هي الأسهل والأكثر عملية إنما أيضًا لأن الملفات القديمة والبالية قابلة للفَناء ومن هنا كان عملي تحويل المستندات إلى ملفات على الكمبيوتر بعد تصويرها ضوئيًّا وفهرستها بحيث يمكن

الوصول إليها بدايةً من عناوين كبيرة مثل ملف سياسي جماعة إرهابية أو عناوين أصغر سجل جنسي اغتيالات رُشًا وداخل كل ملف ملفات فرعية مع مراعاة للترتيب الأبجدي لسهولة العثور على ملف الشخص وقت الحاجة إليه

دفعني الفضول إلى استكمال الجولة في الطابق الثاني (العدُّ من أعلى إلى أسفل هذه المرة) لأكتشف عالمًا أرحَب له نفس الممرات والدهاليز لكنها تبدو أكبر وجدرانه مكسوَّة من أسفل إلى أعلى برفوف لا نهائية ويبدو أنها حُدِّثت مؤخرًا على عكس الطابق الأول إذ كانت الحوائط والسقف حديثة وملونة بألوان زاهية ويتدلَّى من أعلى نجف جديد وعصري كما أنهم لوَّنوا كل جزء بلون وهكذا انتبهت إلى رفوف سوداء وحمراء وخضراء ولم أعرف إن كان لذلك معنى حينها وفي لفتةٍ لاحظت غياب أي مكتب غير أن ثمَّة ترابيزات طويلة ممتدة في كل الممرات تصلح لاستخدامها كترابيزات في مكتبة عامة بعضها يحمل ملفات مُرتَّبة لكنها ليست غزيرة وبعضها تعانقه كراسي مكتب لا تتجاوز الخمسة وكان ثمة أكشاك نصفها من خشب الزان ونصفها زجاجي موزعة في الأركان تضم ملفات منتصبة داخل حواجز من خشب الآرو وكل ملف مُطوَّقٌ بشريط لاصق وأنا أتجول لاحظت أن الإضاءة لا تنطفئ وتوزع الظلام بقدر ما توزع النور الخافت فخمَّنت أن زِرَّ الكهرباء المركزي في الطابق الأول ثم قضيتُ ساعات في صمت أنتقل من رفوف

إلى رفوف في محاولة لفهم الترتيب عبر قراءة الأسماء المدونة على كل ملف من دون أن ألمسه وحين أنهكني التعب قعدت على أحد الكراسي وقلت لنفسي إن هذا الطابق أكثر بهجةً من الطابق الأول وفهمت أن السبب في الألوان وحدثت نفسي بأنه نوع من التوسع في الأرشيف ثم راجعت الأسماء التي قرأتُها في ذهني ولم تلفت انتباهي أغلب الظن لجهل مني وتساءلت كَمْ عمر الأرشيف

5

في الأسبوع الأول وهو أسبوع حاسم لأني فهمت من خلاله طبيعة المكان كنت أتدرب على دِجْتَلَة مستندات صغيرة عن طريق الإسكانر وحفظ الملفات الجديدة في مكانها المناسب ومراجعة الملفات القديمة المحفوظة على الكمبيوتر وبدا لي للوهلة الأولى أنها عملية سهلة لكنها ليست كذلك على الإطلاق خاصةً لو تخيلنا الكَمَّ الهائل من أسماء الأفراد المدرجة وكَمَّ الأوراق التي تُضاف إلى كل ملف من آنٍ إلى آخر وحينئذٍ فهمت على عكس ما كنت أفهم من قبل أن الأرشيف ليس مجرد مخزن أو نسخة احتياطية لملفات أخرى تعيش حياتها في المدينة الفوقية وإنما الاعتماد على ملف سابق له نسخة في جهة سرية والتوسع فيه بعمل يفوق النسخة الأخرى ليكون مرجعًا أكبر عن أشخاص أو جماعات وبذلك يتجاوز الأرشيف فكرة الاحتفاظ بما ورد إلينا ليشمل توسعته عبر منابع مثل الجرائد أو وسائل الإعلام الأخرى المكتوبة والمسموعة والمرئية وهو مجهود مُضاعَف نبذله نحن الموظفين في الأرشيف إذ ينبغي أن نبقى يَقِظين لأي أحداث أو أخبار يمكننا من خلالها التوسُّع في ملف أحد الأفراد من ذوي الأهمية للدولة ومن هنا كان الأرشيف المركزي حيث أعمل يضم ملفات ومسموعات ومرئيات ليس لها نُسَخ أخرى خارجه

6

كنت أصل إلى العمل في التاسعة صباحًا وأغادر في الخامسة باستثناء الشيفتات الليلية التي تبدأ من الخامسة مساءً إلى الثانية عشرة صباحًا في الصيف والحادية عشرة في الشتاء وعادةً في الصباح كان رقم صفر يوزِّع علينا التكاليف أحيانًا بناءً على مكالمات تلقَّاها أو عند تلقي ملفات جديدة يأتي بها ساع في سيارة حكومية مغلقة تشبه سيارة نقل الموتى وأحيانًا أخرى بناء على قراءة الصحف أو البرامج التلفزيونية وحينها ينطق رقم صفر بأحد الأرقام فينهض الموظف المسئول عن الملف لفتحه وإضافة المعلومات الجديدة وفي حالتي كنت المختص بالملفات الجنسية وهو اختيار من المدير لم أعرف إن جاء بالصدفة أم عمدًا وإن كنت أستبعد الصدفة في مكان يعتمد بالأساس على التحرِّي والتقارير وأحيانًا ثالثة نستكمل ما بدأناه في الأيام السابقة وفي صمتٍ شبهِ تامٍّ تمرُّ الساعات في التحديق في الكمبيوتر أو قراءة الجرائد أو طباعة ما نحتاج إليه من أوراق ومن آنٍ لآخر كنت أستغل أي وقت فراغ لأتجول في الأرشيف وأفتح ملفًّا وحينها اكتشفت أن الأرشيف يشبه العبور عبور من الظلمة إلى النور ومن المدينة الهادئة إلى الأرض المضطربة ويشبه الرحلة التي نستعدُّ للقيام بها من دون أن ندري أننا بعد أن نصل سنصير آخرين وحقيقةً أني ابن هذه المدينة وظللت لسنوات أتباهى

أمام نفسي بأني أعرف مخابئها حتى اكتشفت أن كل ما أعرفه ليس إلا القشرة إذ قادني عملي في الأرشيف إلى عالم مسحور وإلى أرض ما كان لي أن أشاهدها لولا أن الحظ أو القدر شاء أن أشاهدها كأن بين عالمي الأول والعالم الجديد ثمة حجابًا وأنا اخترقته من دون أن أكون مُهيئًا لذلك وهو ما جعلني أستدعي سؤالًا ظل يراودني عن توارِي الإله عن أعين البشر وما كان تفسيره المحتمل على الأقل بالنسبة لي أن البشر غير مهيئين للرؤية كأن للعالم ظَهْرًا وبطنًا وسطحًا وعمقًا وأنا انتقلت من الظهر والسطح إلى البطن والعمق

7

وذات يوم من منتصف فبراير من 2002 بعد شهر من وصولي إلى الأرشيف جاءني إبراهيم في المنام وأمرني بأن أتجه إلى العمل وأشار لي إلى الطابق الملوَّن بالتحديد ودلني على الحائط الملوَّن بالأحمر وحين صحوت كانت السادسة صباحًا فسِرتُ كالمنوَّم إلى هناك من دون أن أفكر أنه ليس توقيت العمل أو أني قد أثير شبهة أفراد الأمن مع ذلك فتحت الباب العلوي بالرقم السرِّي ونزلت السلم تحت سطوة إبراهيم وبرفقته وعبرت إلى الأرشيف حتى بلغت الطابق الثاني الملوَّن وكانت الإضاءة خافتة لكن يمكن الرؤية فيها وقادني إبراهيم إلى الحائط الأحمر الذي كنت أعرفه جيدًا لأنه الملفات المكلف أنا بتحديثها واقتربت من رفوف قرأت عليها عنوانًا مكتوبًا بالأحمر الأدْكَن هو سجل جنسي أمرني إبراهيم بقراءة ملفاته بتمهل وقال لي اقرأ يا دانيال فأنت هنا من أجل ذلك وأنت هنا لست من أجل تحديث الملفات فسحبتُ ملفات بأسماء عرفت متأخرًا أنها مشهورة وفتحتها ثم رأيت قُصَاصاتٍ من جرائد تشير إلى جرائم سُجلت ضد مجهول وتسجيلات صوتية مفرَّغة وتقارير حول الشخص وكانت بيانات المجرمين كاملةً أسماءً وعناوينَ وأرقامَ تليفوناتٍ وصورًا شخصية وفي لحظة شرودي همس إبراهيم في أذني هذا عملُك التالي هذا عملك الحقيقي أنت هنا من أجل هذا العمل لكن الآن

انظر بتحديق فنظرت وحدَّقت إلى حيث أشار وكان حرف الـ د مكتوبًا على ملف فسحبته فكان ملفي ذاته ومعنونًا بـ **أرشيف دانيال** هكذا ببساطة وبقلم أحمر وسألت إبراهيم هل كان موجودًا دائمًا أم أعدُّوه قبل قبولي بالوظيفة فأومأ أن انظر واقرأ وحين فتحته وقلَّبت صفحاته تذكَّرت المكتوب وعرفت الكاتب واستحضرت زمنًا كنت فيه منفصلًا عن ذاتي وأتطلع إليها كغريب فأسير في الشارع وأنا أنظر لنفسي من النافذة وأراقب نفسي وأنا نائم فاعرف نفسي في منامي أكثر من صحوي وكنت أراني أتجوَّل بالبيت وأسأل نفسي مَنْ هذا الغريب ولكن السؤال الذي وتَّرني كيف حصلوا على هذه الأوراق المكتوبة بخط اليد بخط اليد المرتجفة الطفولية الفاقدة للحكمة بخط يد دانيال الذي كان ظِلِّي وصورتي

في النهاية جلست على أحد الكراسي وفرشت ملفِّي أمامي لأقرأ تاريخي الذي حاولت تجاهله دون جدوى وقرأت أهم ما حدث في حياتي حتى تلك اللحظة لتكون القراءة جسرًا بين ماضيَّ ومستقبلي

العصر الأول

تقرير دانيال الخيالي

عن دانيال الحقيقي أو العكس

(من أرشيف دانيال)

1

أعرف دانيال منذ وعيتُ على الحياة. كان جارًا لنا ويكبُرني بعامين. يقع بيته بالضبط أمام بيتنا. كان جسده أقوى من جسدي. كان أكثر ذكاءً مني. كان معجونًا بماء العفاريت. علَّمني دانيال كل شيء: لعب الكوتشينة ولعبة البِلْي ولعبة الحَجْلة. علَّمني الفرجة على التلفزيون. كان توم أند چيري مسلسلنا المفضَّل. وأثناء الفرجة كان يعلِّمني أشياءَ أخرى: علَّمني الرسم وصناعة مُصغَّرات من الصَّلْصَال. علَّمني صناعة أشكال من كراتين الشيبسي والكاراتيه. قص الصور الملونة من المجلات وتعليقها على الحائط. كنت ابنًا وحيدًا لأبوين موظفين. يخرجان في الثامنة صباحًا ويعودان في الثالثة ظهرًا. سبع ساعات كاملة كان يجب أن أقضيَها في البيت طوال الصيف. بالإضافة إلى ساعات الشتاء. وحيدًا. لكن دانيال لم يتركني وحيدًا. كان هدية السماء لتنقذني من وحدتي.

دانيال أيضًا كان وحيدًا. كان ابنًا لموظفين مثلي. لكنه كان يعرف الشارع. يعرف الباعة والمَحالّ. يعرف الطرق وملاعب كرة القدم. ملاعب حددنا نحن بأنفسنا أنها ملاعب كرة. كان دانيال يعرف كل شيء. كأنه وُلِد بموهبة معرفة كل شيء. كأن نصيبه من شجرة المعرفة أكبر من نصيب الآخرين. عرفت ذلك حين بلغت سن المدرسة. كان زملائي مثلي تمامًا. فاكتشفت أن دانيال هو المختلف. ورغم أنه كان في مدرسة أخرى فإنه كان يصحبني إلى مدرستي في الصباح. يمر عليَّ في المساء لنعود معًا إلى البيت. وفي الطريق علَّمني أول درس حتى لا أتوه: علِّم كل شارع بعلامة. فعلَّمت الشوارع بلافتة دكان بقالة أو إسكافي. بفرن بلدي أو فرن فينو. بمحل ملابس أو قماش وبمحل تموين. هكذا تعرَّفت على المدينة من خلال دانيال وعرفت شوارعها وخباياها. لكن ذلك لم يكن تميمة ضد التِّيه.

2

كان دانيال حينها يتكلم. وكان مُفوَّهًا. يعرف بالتحديد ما يريده ويقوله بطريقة واضحة. بحروف صحيحة. بثبات. كان يمتلك ما أفتقده أنا. لم يكتفِ بأن يكون مكمِّلًا لنقائصي. إذ كان يرى أني يجب أن أكون كاملًا من دون مكمِّل. وأن تكون علاقتنا نِدِّية وليست علاقة المعلم والتلميذ. في طريقة السير علَّمني أن أرفع رقبتي وأشد ظهري. وفي الكلام ألَّا أندفع. أن أفكر في الشيء قبل النطق به. أن أرتِّب الكلام في ذهني حتى لا أتلعثم. وأن ألتفت للتفاصيل الصغيرة.

3

لا أعرف متى ظهر إبراهيم في حياتنا. لكنه أكبر مني ومن سِنِّ دانيال. وكان جارًا لنا. انتقل أبوه للعمل بمجلس المدينة فالتحق بمدرسة دانيال وفصله. وسريعًا ما أصبح ثالثنا. أدركت فيما بعد أننا كوَّنَّا نادي الأطفال الوحيدين. لم يكن إبراهيم بعبقرية دانيال. كان طيبًا جدًّا. وضعيف الحركة لسَمَانته. لكنه أذكى مني بالطبع وأكثر فهمًا للحياة. حينها بدا لي أن دانيال وإبراهيم أكثر تناغمًا في صداقتهما. كانا من السن نفسها ويدرسان ما لم أدرسه بعد. لهما ذكريات في مكانٍ لا وجود لي فيه. لكن دانيال بذكائه كان يداوي هذه الغَيْرَة الطفولية. ويشاركني دائمًا فيما فاتني. علَّمني دانيال القراءة والكتابة أكثر مما علَّمتني ماما. وكان يشرح لي دروس الحساب حين يشرحها لإبراهيم. وفي لحظةٍ ما كان يُظهر انحيازه لي. وفي أي خلاف صغير يقول لإبراهيم: دا أخويا الصغير. بنبرةٍ لا يُخطئها أحد.

كل ذلك قبل أن يأتي اليوم المشئوم. اليوم الذي قَسَم حياتي إلى نصفين.

4

كان دانيال وإبراهيم يدرسان في مدرسة دينية. بالقرب من مدرستي الحكومية. وكان برنامجنا اليومي أن أقف على باب بيتنا في السابعة والنصف. أسمع من الراديو أغنية مع السلامة فيظهر دانيال في نفس الدقيقة. فيما يأتي إبراهيم من آخر شارعنا الصغير. ثم نشقُّ طريقنا سيرًا إلى المدرسة. يتركانني عند باب مدرستي. ويواصلان إلى مدرستهما. لكن في صباح 6 نوفمبر 1988. وكان يوم أحد. جاء دانيال مهمومًا وبعينين غائمتين. وإبراهيم على عكس عادته المرحة جاء مُعكَّرًا. قال دانيال لإبراهيم: احْكِ لنا حُلْمك. وفي الطريق حكى لنا إبراهيم أنه رأى كابوسًا يصارع فيه الموت. وانتهى الكابوس بموته. أنا لم أكن أؤمن بالأحلام. لم أفهم ماذا تعنيه. لكن دانيال نعم. كان يقلق وكان يفسِّر الحُلْم. وكان يحلم بغزارة. ويحكي لنا أحلامه. ويخبرنا بالشيء قبل وقوعه. وحين حكى إبراهيم الحلم قال له دانيال: عُدْ إلى البيت. لكنه لم يلحَّ. وإبراهيم واصل معنا الطريق كأنه قطار يسير على قضيبين. فلا رجعة ولا التفات. كانت الشبورة تغطي الأفق. وكنا ننفخ في قبضات أيدينا لنشعر بالدفء. نسينا الكابوس لدقائق. ولعبنا بإخراج الأبخرة من أفواهنا لنرى مَن يُخرج أبخرة أكثر. وضحكنا. وركضنا لأن البرد كان أكبر من أجسادنا الصغيرة. كنا نصارعه بالركض. فيما نشوط الطوب وعُلَب

البيبسي كأننا نلعب كرة القدم. وحين وصلت إلى المدرسة هاجمني القلق. وظلت كلمة دانيال لإبراهيم عُدْ إلى البيت ترنُّ في أُذُني. كانت مثل صدى الصوت مثل التحذير الإلهي. حاولت الهروب منه برسمِ رسومٍ لا معنى لها في كشكول أبيض. لكن الأشكال كانت مخيفة. والشعور بأن كارثةً ستقع ظل يتملَّكني. وحين انتهى اليوم الدراسي انتظرت دانيال وإبراهيم على باب مدرستي. كالعادة. لكن لم يأتِ أيٌّ منهما.

5

مرَّت لا أعرف ساعةٌ أو أقل. لم يكن معي ساعة أبدًا. ولا كنت أعرف تقدير الزمن. كنت في الثامنة. في الصف الثالث الابتدائي. أعرف الطريق إلى البيت. لكني لا أعرف تقدير الزمن. غامرت حين فكرت أن أمُرَّ أنا على مدرسة دانيال وإبراهيم. فربما لأي سبب يأتيان من طريق آخر. لكن قلبي قال لي لن يأتيا من أي طريق. سرت بخطوات خائفة. ولأكسر خوفي ركضت. حين وصلت إلى المدرسة كان الحارس يغلق الباب. قال لي إن كل التلاميذ انصرفوا. سألته عن دانيال نظر إليَّ واستغرب لا أعرف لماذا. كان يعرفه. قال لي: نعم انصرف. لكنه لم يكن يعرف إبراهيم.

6

عرفت الخوف في مراتٍ كثيرةٍ في حياتي. لكن هذا اليوم. في الطريق من المدرسة إلى البيت. عرفت خوفًا لم أعرفه أبدًا. كنت أركض. قلبي ينتفض من الرعب من شيءٍ لم أتبينه. من غمامة تُسدل أمام عينَي فتحجب الرؤية عني. فتحت السماء أبوابها بأمطار أغرقتني. وعطَّلت خُطاي. فكنت أنتقل بين منتصف الشارع والرصيف. أمي وأبي وأم دانيال وأبوه في العمل. سيعودان بعد ساعتين. اقتربت من بيت دانيال. ضغطت على الجرس. لم يردَّ أحد. جلست أمام الباب. لا أعرف كم دقيقةً. كم ساعةً. كم يومًا. لم أكن أعرف تقدير الزمن. ثم توجهت إلى بيت إبراهيم. على آخر الشارع. كان دانيال جالسًا هناك. كان يبكي. لأول مرة في حياتي أرى دانيال يبكي. دانيال الساحر. صاحب العصا السحرية. يبكي. حين رآني أقترِب نهض وعانقني وواصل البكاء. قال: إبراهيم مات. كنت صغيرًا في الثامنة. كان صغيرًا في العاشرة. ولم نكن نعرف معنى الموت من قبل. فعرفناه. شعرت بنصل سكِّين في قلبي. قلت هذا هو الموت. شعرت بروحي تُسحب من جسدي. قلت هذا هو الموت. شعرت بدُوَار. قلت هذا هو الموت. شعرت بالأرض تنسحب من تحت قدمَيَّ. قلت هذا هو الموت. سألت دانيال من أين عرف. سألته كيف مات. صَمتَ دانيال. وبكى. بكى دانيال وانتحب كأُمٍّ فقدت رضيعها.

قلت البكاء هو الموت.

7

صعدت درجتَيْ سُلَّم وضربت الجرس. لم يردَّ أحد. التفتُّ إلى دانيال الجالس على العتبة بذراعين مضمومتين فوق ركبتيه بوجهٍ مدسوسٍ بين الذراعين بنهنهاتٍ ونحيب. وفي الأفق رأيت أم إبراهيم وأباه يقتربان. يسيران بصعوبة في أرض طينية بسبب المطر. قالت الأم: إبراهيم مات. قلت لها: أعرف. دانيال قال لي. سأل أبو إبراهيم دانيال كيف عرف. هل كنت معه. قال إن إبراهيم خرج في الحصة الأولى ولم يعُد. استأذن ليروح إلى الحمَّام فلم يعُد. وأنه عرف أنه لم يعد لأنه مات. حين نزل إبراهيم من الفصل نزل دانيال وراءه بعد دقائق. كان يعرف أن إبراهيم سيموت وحاول إنقاذه. لكنه لم يعثر عليه. بحث عنه في الحمَّامات. في الطرقات. في الحوش. لكن إبراهيم اختفى. قال أبو إبراهيم إن عربة نقل خبطته. وقال الشهود إنه كان يقطع الطريق ولم يلتفت للعربة. أحد المارَّة تعرَّف إلى إبراهيم رغم أن العربة شوَّهته. الرجل ركض إلى مجلس المدينة القريب من المدرسة ومكان الحادثة ليبلغ أباه. حين وصل أبوه كان إبراهيم مرميًّا على الأرض ومغطى بالجرائد. كان الشارع واقفًا وعربة الإسعاف هناك. جاءت سيارة شرطة وطوَّقت المكان. حملوا إبراهيم إلى المستشفى. أدخلوه المشرحة. ساعات قليلة جدًّا حدث فيها كل شيء. حين رأينا أبا إبراهيم وأُمَّه كانا انتهيا من دفن إبراهيم. ثم

عادا إلى البيت بمفردهما. لا أنسى نظرة أُمّ إبراهيم. نظرة تائهة ومجروحة. عاجزة. نظرة امرأة مغدورة. انتبهتُ حينها أن أبا إبراهيم شَابَ شعره. تحوَّل شعر الرجل الأسود إلى كتلة قطن. فتح الأب الباب ودخل. دعانا للدخول. لكن دانيال قرر أن نذهب إلى مكان الحادثة.

8

كان ثمَّة طريقان إلى المدرسة: الأول ترابي. كان أرضًا خاليةً إلا من النخيل على يسارنا. وعلى يميننا لا شيء إلا بيوت ريفية قصيرة منثورة على بعد نصف كيلومتر أو يزيد. وفي نهاية الطريق ينتظم شارع من بنايات من ثلاثة طوابق إلى خمسة على الجانبين. وفي آخر الشارع مدرستي أولًا. ثم مدرستهما بعد مائة متر تقريبًا. هذا الطريق كان الأقرب. كنا نستغل الأرض الترابية كملعب كرة قدم عند العودة. أو على الأقل نشاهد زملاءنا وهم يلعبون. وكنا نستغلها في نهايات الصيف وبدايات الخريف لنتسلق النخل كما علَّمني دانيال. ونهبط بالبلح الأحمر والأصفر. كان النخل عاليًا جدًّا. وكنا نشاهد مُتسلِّقيه من الكبار وهم يربطون أنفسهم بحزام. أما نحن فكنا أكثر شجاعة. أو تهورًا. أما الطريق الثاني فطريق أسفلتي. سريع. هو الموازي للطريق الترابي. وبالتالي تقع النخلات على يمينه. فيما يقع على يساره مساكن شعبية من الستينيَّات. مُكوَّنة من خمسة طوابق. وفي بعض طوابقها الأرضية دكاكين ومَقاهٍ. محل ملابس وميني ماركت نطلق عليه السوبرماركت. يبدأ هذا الطريق بكوبري علوي مَنْزَلُه يؤدي إلى طرف المدينة حيث مدارسنا. ومَطْلعُه يؤدي إلى وسط المدينة حيث بيوتنا. ينقسم الطريق الأسفلتي المؤدي إلى مدارسنا إلى حارتين. يفصل بينهما حديقة طولية ونحيفة بها شجرات قصيرة.

تمنح الرعب للعابرين. وفي نهاية الطريق شارع عَرْضيّ واسع. يصبُّ رأسًا عند مدرستينا. لم نستخدم أبدًا الطريق الأسفلتي بمفردنا. لا في الذهاب ولا الإياب. لم يكن طريقًا آمنًا. وتحذيرات أمهاتنا كانت قاطعة.

9

مكان حادثة إبراهيم كان هذا الطريق الأسفلتي. اصطحبني دانيال إلى هناك عبرَ الطريق الترابي. ومن بين النخلات اتجهنا يسارًا. كان كل شيء قد انتهى. عادت السيارات إلى حركتها الطبيعية. سرتُ مع دانيال على الرصيف الأيمن كأننا في اتجاه المدرسة. وكانت السيارات النازلة من الكوبري تأتي من ورائنا. عند نقطةٍ ما توقف دانيال وقال: انظر. بقايا دماء إبراهيم كانت تلوِّن الأرض السوداء. والسيارات القاسية تدوس عليها غير مبالية. قال دانيال لم تصدمه العربة على أول الشارع. ولا صعدت على الرصيف. إنما بعد دخوله إلى الطريق نفسه وسيره فيه. ثم صمت وبكى. قال إن إبراهيم جاء إلى هنا ليموِّت نفسه. هو من رمى نفسه على العربة. إبراهيم انتحر. كانوا قليلين جدًّا مَن يسيرون على الرصيف. ولا أحد يتجرأ على عبور الشارع. وأنا صدَّقت دانيال. لكني لم أفهم لماذا ينتحر إبراهيم. واصلنا السير قليلًا للأمام. وعثرت على منديل قماشي أبيض متسخ. انحنيت لألتقطه من الأرض. قلت لدانيال إنه منديل إبراهيم. قال: نعم. وشده من يدي. كان جفاف المنديل مع شدة اتساخه يعني أنه كان مبلولًا حين سقوطه على الأرض. استنتج دانيال أن إبراهيم كان يبكي بشدة قبل انتحاره. وأن لحظة إلقاء المنديل هي نفسها لحظة الركض نحو العربة النقل. ليموت. كنت أسمعه

وأنا مذهول من استنتاجه. وفي قلبي حزن عميق وألم. من مكاني على الرصيف كنت أتخيَّل إبراهيم وهو يركض. وهو يجرُّ جسده الثقيل. وهو يصطدم بالعربة فتُطيِّره لأعلى. وهو ينزل على الأرض ميتًا. شعرت بدُوَار وسقطت على الأرض. حين فقتُ وجدت رأسي على حِجْر دانيال. ووجهي مبتلًا بدموعه. ومحاطًا بوجوهٍ لا أعرفها.

10

كانت ملابسنا متسخة جدًّا حين عبرنا بين النخلات مرةً أخرى. عُدنا إلى الطريق الترابي. صار طينيًّا مع المزيد من المطر. وتوجهنا في طريق العودة إلى البيت. حكى لي دانيال ما حدث في صباح هذا اليوم.

11

كان الشيخ الكفيف يشغل الحصص الثلاث الأولى. وكان يكرِّس الحصة الأولى لتسميع ما حفظوه بالأمس. أو في الأيام الماضية من آيات. حينها كان يطلب من التلاميذ أن يخبئُوا وجوههم ويلتزموا الصمت. ويأمر رائد الفصل ليقف على الباب كحاجب. ثم يختار أحدهم ليسمِّع بصوتٍ مرتفع. في اليوم المنكوب اختار إبراهيم. فنهض من مكانه كما طلب الشيخ. اقترب منه وبدأ التسميع. لا أحد كان يجرؤ على رفع رأسه من الدِّكَّة. ذراعان متقاطعتان وبينهما وجه مدسوس. آذان يخترقها صوت من يصيبه الدور. حكى لي دانيال أنه شعر بألم إبراهيم من تقطُّع صوته. فرفع رأسه قليلًا ورأى. إبراهيم على دكة الشيخ ووجهه للفصل. ينزل ويطلع على حِجْر الرجل الكفيف الذي يقبض على خَصْره بقوة. لم يفهم دانيال ما الذي يحدث في البداية. لم يصدِّق بعد ذلك ما يراه. ثم استوعب وصدَّق. كانتا دقيقتين. وكان إبراهيم ينظر إلى دانيال ويبكي بكاءً مكتومًا. يكرر الآيات ويخطئ. يضربه الشيخ على مُؤخَّرته ويصحح له. ويكمل فعله. كانتا دقيقتين أبديتين. انتهتا برجفة الشيخ. ثم نهوض إبراهيم وركضه إلى الحمَّام. إلا أن الدقيقتين لم تنتهيا أبدًا. نظرة إبراهيم المكسورة والمتألمة لم تنتهِ. وشعور دانيال بالخزي والجُبْن حُفِر في قلبه.

12

عرف دانيال أن إبراهيم لن يعود أبدًا. وبعد دقائق طلب الذهاب إلى الحمَّام. لم ينتظر موافقة الشيخ. بحث عنه في كل مكان. لم يعثر عليه في أي مكان. لا في الحمَّامات المُقزِّزة ولا في الحوش. لا في الطرقات ولا عند البوابة. إحساس أن إبراهيم سيموت استحال هاجسًا مميتًا. وخطر له أن إبراهيم بالفعل قد هرب. ومن دون أي يقين من هاجسه حاول تسلق السور. الهروب من المدرسة. كان السور عاليًا. ولم يكن بوسعه أن يصل إلى حافَّته المطوَّقة بسلكٍ شائكٍ ليقفز. فشلت عدة محاولات. ولمحه أحد المدرسين فأعاده إلى الفصل بتهديد. استرجع دانيال مشاهد سريعة. عبارات لم يفكر فيها من قبل. المُدرِّسون كانوا يتغامزون على الشيخ بعبارات توحي بأنه محب للأطفال. ويمزحون معه بهذه العبارات. ويتبادلون الضحك. فهم دانيال في هذه اللحظة بالذات أن الشيخ مغتصب للصغار. وفي لحظة أدرك أنهم جميعًا متواطئُون. عاد دانيال إلى الفصل. تطارده نظرة إبراهيم المكسورة. النظرة المجروحة والمتألمة. نظرة تقول إنه لن يعود.

13

قال لي دانيال إن إبراهيم لم يشعر بالألم فحَسب. إنما شعر بالإهانة والذل. لكن ألمه الأكبر كان لحظة التقاء عينيه بعينَيْ صديق عمره. الخجل من فعل لم يرتكبه. فعل وقع عليه رغم إرادته. كان كافيًا ليرحل بعيدًا. لذلك شعر دانيال بالذنب. وعرف أنه متواطئ في الجريمة. قال دانيال بحزنٍ: كان يمكن لإبراهيم أن يحتمل الخزي منفردًا. لكن نظرة دانيال عجَّلت بنهايته. المعرفة أدت إلى الموت. الجهل بالشيء يمكن أن يؤدي إلى النجاة.

14

حين وصلنا إلى باب بيتي رجوتُ دانيال أن يبقى معي. كنت خائفًا. كنت أرتجف. مسح رأسي بيدٍ حانيةٍ ووافق. رغم أنه كان غائبًا عن العالم. في غرفتي انهار مرةً أخرى حين فتح الدولاب. كان يبحث عن ثوبٍ للنوم. فصادف تيشيرتَ لإبراهيم. انفجر في البكاء. صمَّم أن يضيف المنديل للتيشيرت. وأن أحتفظ بهما في رَفٍّ منفرد. وفي لحظةٍ سكت دانيال. شرد بعيدًا وجحظت عيناه. قال لي وهو غائب وكأن صوته من عالم آخر: "أرى صحراء يسير فيها أناسٌ لا أعرفهم. وبينهم يظهر إبراهيم كأنه تائه". ثم لم يفسر أي شيء. كنت في الثامنة ولم أكن أفهم معنى الصحراء. وكان في العاشرة وقرر أن يخوض فيها.

15

في تلك الليلة بات معي دانيال. لكنه لم ينَمْ دقيقة واحدة. ظل يقصقص بمقص كبير أوراقًا وكراتين في شكلٍ واحد: رجلٍ ملتحٍ ويرتدي جُبَّةً وقفطانًا وعمامة. كلما تقلَّبت رأيته على الأرض يلوِّن الوجه. يصنع له عينين وفمًا وأنفًا ولحية. ثم يثقب العينين بإبرة. ويبكي. ربما كانت الثالثة فجرًا أو الرابعة. لا أدري. حين ظهرت طاقة نور في السقف. نور يغطي على نور الغرفة الذي أصرَّ دانيال على تركه مفتوحًا. قوة النور أقلقتني من غفواتي. ولفتت دانيال حتى إنه ترك الأشكال التي يصنعها ونظر إلى السقف. لم أَرَ أكثر من النور. لكن دانيال رأى إبراهيم داخل هذه الدائرة القمرية. وظل يكلمه. كنت أسمع دانيال ولا أسمع إبراهيم. دانيال كان ينسحب مرةً أخرى إلى عالم آخر. كان مصعوقًا. وأنا لم أكن أفهم ما يحدث. كان يقول: ما هذا الباب يا إبراهيم. ويدفع بيده كأنه يدفع بابًا. يقول: ما هذه الصحراء يا إبراهيم. مَن هؤلاء الناس يا إبراهيم. لماذا يرتدون الأبيض يا إبراهيم. أنا آسف يا إبراهيم. لم أكن أقصد النظر. ويبكي دانيال مرةً أخرى. ويعانق الهواء. كنت مرعوبًا. أكلم دانيال فلا يسمعني. بعد ساعة أو أكثر. لا أعرف. فلم أكن أعرف تقدير الزمن. نظر دانيال مذهولًا إلى قرص القمر. قال: الشيخ مات. وابتسم. فهمت حينها أن دانيال أصابه الجنون. وقلت هذا هو الموت. أن يصيبنا الجنون. أن تنزف

قلوبنا فتغطي الأرض وتملأ الغرفة بدمٍ ليس أحمر تمامًا. بدم يحمل صورة من نُحبّ. كأن الكُرَات الحمراء صنعت صورًا مُصغَّرة منهم. لا أعرف إن كنت غفوت بعدها أم لا. لكني أعرف أن دانيال لم ينَمْ. لم يغمَض له جفن. كنت كلما تقلبت في الفراش وفتحت عينَي أراه في الأرض. ينظر إلى السقف. وحين طرقت ماما الباب لنستعد للمدرسة لم يكن قد عاد كليةً من العالم البعيد.

16

في الطريق إلى المدرسة كان جسد دانيال بجواري. لكن روحه كانت في مكان آخر. أنا أيضًا كنت حزينًا لموت إبراهيم. كنت أشعر بقلبي ينزف كذلك. ومن آنٍ لآخر كانت الدموع تهرب من عينَيَّ. لكن دانيال في هذا الصباح بالذات لم يفعل ذلك. بدا لي تائهًا ومتماسكًا. الحزن يكسو وجهه. لكن عينيه جافتان ونظرته زائغة. المسافة التي كنا نقطعها عادة في ربع ساعة طالت. امتدت لا أعرف كم دقيقة. لم أكن أعرف تقدير الزمن. وفي لحظة تهور غير محسوبة قلت لدانيال: يا ريته سمع كلامك وروَّح. قلتها بصوت معترض على القدَر. وفكرت أن لو يمكن أن نعيد الزمن يومًا واحدًا فقط. أن لو راح إبراهيم في النوم. أن لو غاب الشيخ يومها. وبكيت وجلست على التلتوار. بذراعين على ركبتين. برأس بين ذراعين. تأخر دانيال في الاقتراب مني. وبحَدْسِي فهمت أنه لم ينتبه لفراقي. وحين عاد بعد ثلاث دقائق أو أكثر أو أقل لا أعرف. فأنا لا أعرف تقدير الزمن. شدني من شعري ورفع رأسي بقوة. قال كلامًا فهمت منه ألَّا أخبِّئ رأسي أبدًا بين ذراعين. لا أعرف إن قال ذلك بالتحديد. لأن ما لفت نظري لم يكن كلامه. وإنما نظرته. عينا دانيال عسليتان ومُدوَّرتان ومتسعتان. بياضهما نقي جدًّا ولون العسل نقي جدًّا. وفي هذه اللحظة بَدَتا لي زجاجيتين. وسريعًا ما تذكرت تمثالًا خشبيًّا لميت شاهدته

في المتحف المصري. قالت لي ماما إنه تمثال الروح عند الفراعنة. كان التمثال يحمل فوق رأسه ذراعين. وكانت عيناه عسليتين لكنهما قاتمتان. قالت ماما إنها نظرة التِّيه. فالروح لا تعرف أين تذهب بعد أن فقدت الجسد. تأملت نظرة دانيال وقلت له: عينك قزاز يا دانيال. قال: أعرف. ومدَّ لي يدًا لأنهض ونواصل الطريق. وفي الطريق رأيت الجميع بعيون زجاجية.

17

حين وصلنا إلى مدرستي نظر إليَّ دانيال. بكثير من الأسى. قال: لا تنتظرني اليوم. عُد لوحدك إلى البيت. قلت: لا يا دانيال. نعود معًا يا دانيال. لو تحب أنتظرك عند مدرستك. لكنه كان حاسمًا. عُد إلى بيتك لأني اليوم مكلف بمهمة. وعدني دانيال بأن نلتقي في بيتي بعدها. ورغم استيائي رضخت. لم تمرَّ إلا دقيقتان أو ثلاث. لا أعرف. فأنا لا أعرف تقدير الزمن. ووجدتُني أدور وأسير بجواره. حين انتبه لي وضع ذراعًا على كتفي ودخلنا معًا طابور الصباح.

18

في مدرسة دانيال عرفوا بموت إبراهيم في اليوم التالي. وفي طابور الصباح قرروا قراءة الفاتحة على رُوحه. في الإذاعة المدرسية كان صوت الشيخ يرنُّ في المدرسة بسورة الفاتحة. ولمَّا ختمها دعا لإبراهيم بالجنة. ودعا الله أن يغفر له ويرحمه. أنا بكيت. لكن دانيال لم يبكِ. في الطريق إلى الفصل كان السلم مزدحمًا. اقترب زملاء لدانيال وعزُّوه. بكلمات مقتضبة. لا أعرف لماذا فهمت عبارة كلنا لها على أنها مقصودة وليست عبارة عزاء. كأنها تحذير أو إقرار بواقع. كأنهم كلهم لهذا الموت وبنفس الطريقة. ربما كانت نظرات عيونهم المُوشِيَة تقول ذلك. كأنهم يتقاسمون سِرًّا بينهم ما ينبغي أن أعرفه أنا. وعلى عكس مدرستي إذ نستغل هذه الدقائق للمزح واللعب. كان التلاميذ متجهمين. كأنهم يُساقون إلى الجحيم. في الفصل كان ذلك أكثر وضوحًا. جلس كُلٌّ منهم على دِكَّته صامتًا. بنظرة ثابتة على السبورة أو الأرض. ولا حتى تبادلوا النظر.

19

بمجرد ما دخلنا أجلسني دانيال بجواره. بجانب الحائط. في نفس مكان إبراهيم. على الدكة الثانية يمين الفصل. انتبهت حينها لشنطة إبراهيم. كانت قماشية مثل شنطنا جميعًا. مسنودة على الحائط تحت الدكة. أشرت لدانيال. اندهش أنه قد نسيها بالأمس. وعلَّل بأنه خرج من المدرسة ركضًا ولم تخطر بباله. بعد برهة دخل الشيخ نفسه الذي قرأ الفاتحة في الإذاعة. كان برفقة تلميذ أجلسه على دكته الفردية. بوجهه إلينا وظهره للسبورة. لاحظت أن الشيخ أعمى. رغم أنه يرتدي نظارة سوداء تداري عينيه. كان يُصدِّر جانب وجهه حين يتكلم. كأنه يرى بأذنه اليمنى. لسببٍ ما شعرت بالخوف. ربما من ضخامة الرجل. إذ كان طويلًا وعريضًا مثل عملاق. قلت لدانيال: أنا خايف. فنظر لي بعينين زجاجيتين ثابتتين. قال: متخافش. قالها بيقينٍ نزع الخوف من قلبي. ثم أمرني بالصمت بوضع سبَّابته على فمه. لم تمرَّ دقائق ونهض دانيال من دِكَّتنا. اقترب من الشيخ. همس في أذنه اليسرى بكلام لم أسمعه. عرفت حين عاد دانيال إلى الدكة أنه دعاه إلى الغداء في البيت. ليبدأ معه حصص تحفيظ القرآن. استغربت دانيال واعترضت بصوت هامس. كيف يدعو الشيخ إلى البيت وهو يعرف ما فعله في إبراهيم. حدَّق فيَّ بلومٍ وأومأ برأسه في خيبة أمل. فصمتُّ. كرهت الشيخ. لكن لم يخطر ببالي أبدًا لا ساعتها

ولا الآن ما خطر ببال دانيال.

20

ارتدى الشيخ زِيَّ الملاك. أمر الفصل بقراءة الفاتحة على روح إبراهيم. كان خاشعًا تمامًا كأنه لا يعرف كيف مات. ولا من السبب. ثم ما لبث أن قال: الآن نسمِّع سورة الرحمن. قف يا دانيال على الباب من الخارج. ممنوع دخول أحد أي كان. دِسُّوا وجوهكم في الدكة. وراجعوا حتى يأتي دوركم. ثم نادى لأحد التلاميذ. حينها خرج دانيال وسحبني معه. أغلق باب الفصل وراءنا. كانت الطُّرْقة هادئة جدًّا. كل التلاميذ في فصولهم. أصوات عالية تردد القرآن في سباق. إلا فصل دانيال. ساد الصمت بداخله لدقائق. ثم سمعنا صوت تلميذ واحد فحسب يقرأ بصوتٍ متهدج. متألم. مشروخ. قلت لدانيال: ماذا يحدث لزميلك. فأجابني بحزن: ما حدث لإبراهيم بالأمس. صُعقت وأردت تفاصيل أكثر. أصرَّ دانيال على أن ألتزم الصمت. سألته إن كان الشيخ سيأتي معنا إلى البيت فعلًا. قال نعم. وفي الطريق لا تتكلم. كان دانيال غريبًا جدًّا وفظًّا. كان قاسيًا جدًّا معي لأول مرة في حياته. لا بد أن زعلي بانَ على وجهي. إذ سريعًا ما مد يده إلى رأسي وربَّت عليَّ. قال بغموض: أنا مكلف بمهمة. لو أحببت أن تأتي معي التزم الصمت. وافقت بهزَّة رأس. وتذكَّرت قصة الخَضِر وموسى التي حكاها لي من قبل. في الأثناء فُتِح الباب من الداخل وخرج أحد التلاميذ. بصق على دانيال وهو يبكي بعينين

زجاجيتين. وضربه في صدره. لم أفهم لماذا ضرب دانيال ولا دانيال تكلم. ولا حتى دافع عن نفسه.

21

التلميذ الذي خرج في الحصة الأولى لم يعُد طوال اليوم. سألت دانيال إن لاحظ ذلك. قال: نعم. سألته: لماذا ضربك. قال: لأنه كان يطلب النجاة ولم أنجده. ثم صمت برهةً وقال: سأنجدهم جميعًا. التزمنا بالدكة طوال اليوم الدراسي. حتى في الفسحة لم يرغب دانيال في الخروج من الفصل. حين قرصني الجوع أخرجت سندوتشًا وأكلت. دانيال لم يأكل. استسلمت في حصةٍ ما للنوم. دانيال لم ينَمْ. ظننت أن الشيخ يعطيهم حصة واحدة أو حصتين. واكتشفت أن حصص القرآن خمس حصص يوميًّا. بينها حصة واحدة للعربي أو الحساب. كان الشيخ يتجنب دانيال. لا يوجِّه إليه كلمة. لا يطلب منه التسميع ولا الترديد مثلما يطلب من زملائه. فكرت أن الشيخ يراعي حزنه. يعلم بالتأكيد أنه صديق إبراهيم وجاره. حين قلت الفكرة لدانيال أومأ بالنفي. ليس هذا هو السبب. وأشار بيده بعلامة الأكل والفلوس. ففهمت سبب التفضيل. وعرفت أنه تفضيل حديث. مؤقت. طارئ. سألت دانيال وكيف كان يعاملك من قبل. كنت أفكِّر فيما حدث لإبراهيم. نظر إليَّ وقال: هددته بأن أخبر أبي فابتعد عني وصفعني. ذات مرة حكى لي دانيال أن الشيخ همس في أذنه أنا لا أحبك أنا أحب العيال السُّمان. كنت في الثامنة وفهمت. أو ربما فهمت بعد ذلك لا أعرف. فأنا أفهم الأشياء متأخرًا. فهمت أن

صوت الولد المتألم ناتج عن ألم إيلاج. وربما فهمت أن دعوة دانيال للشيخ ربما تتضمن ذلك. إذ إنَّ الفترة الزمنية بين خروجنا من المدرسة وعودة آبائنا إلى البيت تصل إلى ساعتين. انقبض قلبي من الفكرة. كان في الفصل شيء قاتم. مغبَّر. رائحة كريهة لم أعرف مصدرها. رغم الشتاء ورغم الشبابيك المفتوحة. سألت دانيال مرة أخرى إن كان سيدعوه بالفعل إلى البيت. فلمَّا لمح خوفي أومأ بالنفي. قال: التزم الصمت. تذكَّر الخَضِر وموسى. وكان جادًا جدًّا. وأنا شعرت بالغضب. من تكرار التزام الصمت. كأني لا ينبغي أن أعرف شيئًا. بعد ذلك سأعرف أن صمتي كان نجاةً للجميع. في حين كان صمت الجميع مهلكةً لهم.

العصر الثالث

دانيال في الأرشيف

8

لا تُسأل سمكةٌ في الماء إن كانت مقتنعة بوجودها في الماء ولا يُسأل القطار نفسه إن كان في الاتجاه الصحيح ولا إن كان يعرف قبلته ومثل السمكة ومثل القطار كنت أعيش كتُرسٍ في عَجلَة لا يلتفت إليه أحد لكن مجموعة التروس هي السبب في عمل هذه العجلة وكلما خلوت بنفسي كنت أقول إن الوظيفة جاءت كطوق نجاة كأني سرتُ في طريقٍ بلا رجعة طريق يتلاشى مع كل خطوة أخطوها للأمام مثل موسى وهو يعبر البحر طريق رُصِف له ولأتباعه وحُرِّم على غيرهم بل وحُرِّم عليهم هم أنفسهم العودة منه إذ كان قانون العمل أن من يدخل لا يخرج عرفتُ هذا منذ اللحظة الأولى لكن مواصلتي للعمل في هذا المكان لم يكن احترامًا لهذا القانون فحسب إنما رغبة أكبر في أن أختفي في أن أختفي من الحياة من العالم من ذاتي رغبة قوية في أن أكون مجرد ظل طيف شبح شخص بلا وجود تراه في الشارع فلا تبصره تمد يدك إليه فلا تلمس إلا الوهم ربما تسألني يا دانيال منذ متى جاءتني هذه الرغبة لو كنت أعرف لأفصحتُ فأحيانًا أشعر بأنها وُلِدت معي نَمَت مع جسدي رغبة صارت لها نفس شكلي كأنها الروح التي هي

صورة الجسد ومثل الصورة التي أحملها معي كانت تتحرك كانت تنام كانت تأكل وتشرب وتتبوَّل وأحيانًا كانت الرغبة تفوقني تخرج عن يدي وتتوحَّش تغدو كائنًا ضخمًا حينها كنت أختفي تمامًا أختفي في العمل وأختفي في البيت ولم يكن الشارع إلا جسرًا بينهما ومثل السمكة في البحر لم أسأل نفسي عن مصيري ومثل القطار المسرع فوق قضيبين لم أتوقع إلا الوصول لنهاية الخط مهما دهست في طريقي بشرًا وحيواناتٍ والوصول في سلام أو الاصطدام في مصدَّات والتمزق فوق رصيف وقضبان كنت مثل قطار أيضًا لا أحد يملكه كل ركابه عابرون يملكون كرسيًّا لفترة من الزمن ثم يرحلون في سلام من دون وداع قطار له سائق لا أراه أعرف ذلك من دون أن أتيقَّن في ذلك قطار يسير على قضيبين لا يمكن أن يخرج منهما ولو خرج تسبَّب في كوارث وعاش هو نفسه مأساته الأخيرة

9

كنت أتطلع إلى دانيال وأنا جالس في بيتي وحيدًا وأراه يتحرك في البيت فيما أنا جالس على كنبة الأنتريه أمام التلفزيون أراه يدخل المطبخ ويعدُّ أكلًا خفيفًا وأراه يتطلع من نافذة على الشارع وأراه مضطجعًا على الأرض في ساعات اليأس وحين يسلِّم كل أسلحته وينام يحلم وأرى أحلامه وانقباضات وجهه أو انبساطه ولأني أسكن بالدور السادس تحديدًا لا أتوقف يومًا عن التفكير في طرق للنجاة إن حدث زلزال أو سقوط مفاجئ للبناية أو حريق من شقة قريبة أو حتى في شقتي نفسها أو لو حدث واكتشفوا مَنْ أنا وجاؤوا ليصفُّوني هكذا كنت أقضي أوقاتًا في الشباك أو البلكونة ليس بغرض تأمل الشارع إنما مراقبته وتقدير المسافة بيني وبين الأرض في حالة لو قفزت وتخيُّل الإصابات الممكنة وأفكر في هل ستحتملني الشجرة المرتفعة لو قفزت عليها كمرحلة انتقالية في النجاة

وذات يوم اشتريت حبلًا طويلًا ومتينًا يصل إلى الأرض يستخدمه اللصوص لسرقة الأدوار المرتفعة واحتفظت به بجانب النافذة المطلَّة على الشارع وكنت أرى دانيال يتعلق بالحبل الطويل في نافذتي في وضع الاستعداد حين تأتي لحظة الهروب الحتمية كنت أراه بقفازين جلديين حتى لا تتقطع يداه في المسافة الطويلة حتى يبلغ النجاة ولنفس السبب أحتفظ بكل ما يهمني في منطقة واحدة بالقرب من

يدي وأفكر أني في حالة الطوارئ لا أريد أن أخسر شيئًا وأن أبدأ من جديد يوم يتقوَّض البيت بأشيائي القليلة التي أحبها ومن حينٍ إلى آخر كنت أفكر لماذا أفكر دائمًا في الهروب وأقول لنفسي لأن كل شيء قابل للتلف والهروب ليس إلا غلق صفحة وفتح أخرى والهروب بداية جديدة وهكذا أعدِّل الاسم من هروب إلى بداية ومن أجل البداية لا مفرَّ من المغامرة من حبل نعلقه من شَنْكَلِه في نافذة ونهرب سريعًا قبل أن تتهدم البناية فوق رؤوسنا لن يُجدي في أوقات الزلازل استخدام المصعد أو السلم لن يجدي الاستسلام براحة ضمير لما يمكن أن يفعله القدَر كما فعل بابا في زلزال أكتوبر 92 حين رفض أن يموت على السلم أو في الشارع وظل يتجول بالبيت كأنه هو نفسه من يُثبِّته وأفكر كل يوم أن الحبل نفسه يستخدمه اللصوص من أجل السرقة وأستخدمه أنا من أجل النجاة

10

إن تصورت أحيانًا أني قطار يركبه المسافرون فأنا نفسي مسافر في قطار بلا قِبْلَة أنزل في كل محطاته بلا استثناء وأعاود ركوبه مُجدَّدًا كأنه مصير لا يمكن تجنبه وفي كل محطة أترك جثة ومع كل جثة أشعر بأني حققت نوعًا من العدالة حتى لو أصابني ذلك باكتئاب ومخاوف والآن أنا فى محطة جديدة محطة ضيقة ومهجورة وجدت نفسى فيها بعد أن صارت يدي اليسرى بخمس أصابع تشبه خمسة أنصال وصار زوار أحلامي قتلى وموتى

11

ملفي الذي عثرت عليه في الأرشيف المركزي مصنَّفًا في ملفات السجل الجنسي وتحت حرف الـ د كان صورة من نصوصٍ كتبها دانيال الآخر (أو الأول) بيده على مدار سنوات حين لاحظت منذ سِنٍّ مبكرةٍ أن ذاكرتي تطرد ذكرى الحادثة وما ترتب عليها لأستعيد نفسي أو لأني في حقيقة الأمر فقدت صلتي مع العالم للأبد فغدت الكتابة طريقتي الوحيدة للتعبير لكن حدث لي ولا يزال يحدث إلى الآن نوع من الانقسام إذ استحلتُ شخصًا منفصلًا عن ذاته يطلُّ عليها كغريب يراقب غريبًا وبهذه الطريقة كنت دانيال الذي يكتب عن دانيال ودانيال الذي يحدِّث دانيال ودانيال الذي يحب ويكره دانيال ودانيال الذي يصحب دانيال إلى السينما وكنت ولا زلت أرى نفسي في الواقع بنفس طريقة رؤيتي لذاتي في الحلم: أراني أتحرك وأتكلم وأنام وأعمل وأتنبَّأ لنفسي بما سيقع وأتجنب الفِخَاخ قدر المستطاع

ما أثار فزعي حين قرأت ملفي في الأرشيف لم يكن إلا براءة دانيال الأولى وسؤالي الساذَج كيف وصل هذا الملف إلى هذا المكان لكني سريعًا ما أدركت في أي مكان أعمل ومع مَنْ فالسلطة التي أعمل معها وصرت أنا جزءًا أصيلًا فيها تعرف كل شيء عن كل شيء وعن كل أحد ولم يكن ممكنًا تحت أي ظرف وبأي طريقة أن أنجوَ أنا من هذا الشرط

الواقع الذي عرفته على مهلٍ صرتُ أنا نفسي جزءًا منه وأحد صانعيه لكن لا يمكن أن أقول أحد عقوله أو مهندسيه إنما أحد صانعيه فحسب وفي نفس هذه اللحظة تنبَّأت بأن بنيتي الجسدية ستكون مثلهم تمامًا لا شيء يفرِّق بيننا إلا أني أصغر سِنًّا ما يمنح لجسدي قَوامًا متماسكًا ثم انتبهتُ لعيوننا الضيقة والمدوَّرة والمختبئة وراء نظارة طبية بشَمْبَر عاجي أسود ولمشيتنا المنحنية قليلًا للأمام ما خلَّفت لديهم حَدْبة صغيرة لم تَطُل ظهري بعدُ وهي مشية ترددتُ كثيرًا في تفسيرها فحينًا أشعر بأنها مهزومة وحائرة تدوس فيها القدمان بتوتر أرضًا ثابتة وحينًا أشعر بأنها مشية منتصرة تدوس فيها القدمان برسوخ أرضًا متحركة وفي كل الأحوال لم تكن كواحلهم تستقر على الأرض بشكل طبيعي خشية أن تنغرس فلا يستطيعون النجاة

النجاة كانت أكثر الكلمات التي رددتها بذهني منذ دخلت مصلحة الأرشيف وحتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور وأكتب هذه السطور حتى يستقرَّ بها الحال داخل الأرشيف نفسه باسم مجهول بملف لا يكشف هُويَّة كاتبه على أمل أن يأتي موظف آخر ويدفعه الفضول فيمد يده على الملف ويقرؤه وفى الوقت نفسه الأرشيف هو أكثر الأماكن أمانًا وهو المكان الذي يدافع عنه الجميع لأنه ذاكرتهم وهو أكثر الأماكن أمانًا لأن الجهة التي بوسعها أن تتنصَّت وتراقب لن تفكر أبدًا في هذا المكان وأكثر أمانًا أيضًا لأن أحدًا لن يطَّلع عليها إلا من كان يعمل بالمصلحة ولن يحدث ذلك بالتأكيد إلا في حالة وفاتي ولو أن ثمَّة احتمالية أن يطَّلع عليها أحد الموظفين في غيابي إلا أنه احتمال بعيد بعض الشيء فملفَّات الأشخاص المجهولين لنا لا تثير اهتمامنا فى مقابل ملفات المشاهير والشخصيات العامة ومن ناحية أخرى فالأعمال اليومية التي تأتينا كفيلة بألَّا نفعل شيئًا إلا عملنا ذاته وهو عمل نقضي ساعات طويلة في إنهائه ونرحِّل منه ما يمكن ترحيله لليوم التالي وبالطبع تأتينا أوامر من آنٍ لآخر للبحث في الأرشيف عن ملف لكن الأمر يأتي باسم محدد وبالتالي لا نشرد بالبحث في أسماء أخرى

مع ذلك أتساءل عن جدوى الكتابة والفائدة المرجوَّة من

كلمات لن تغير شيئًا ولن تبلغ مبتغاها ثم أقول لنفسي إني من هواة صيد السمك وفي ليالٍ كثيرة حين يسيطر عليَّ وسواس بأن كل الأبواب موصدة وأن العالم نفسه مغلق وأن الواقع غَدَا ملكًا لآخرين كنت أنا أحد الذين أسهموا في أن يملكوه أجد مفرًّا عند النهر عند جسر صغير يربط بين ضفتين وأجد مفرًّا في سنَّارة صيد وفي غمَّاز ملقى في الماء وفي صفحة متموجة على مهل ورائقة كأيام الطفولة الأولى وتحتها غرق كأيام ما بعد الحادثة وحينها أتساءل من علَّم الصياد أن بوسع السنارة أن تلتقط سمكة ومن يضمن له أن سمكة ستمدُّ منقارها لتلتقط طُعمًا هزيلًا ومثل الصياد أنا حين أكتب ما أكتبه الآن وأراهن على الأمل وإن كان الصياد ينتظر سمكةً ليأكلها فأنا أنتظر قارئًا ليأكل هذه الأوراق وأنتظر ضحيةً جديدة تلتقط الذريعة التي أدعوه بها إلى لقاءٍ سيكون لقاءَه الأخير ودقائقه الأخيرة في العالم لتغمض عيناه في النهاية على وجه يشبه الوجه الذي انتهكه ذات يوم

العصر الأول

تقرير دانيال عن دانيال

22

لمَّا رن جرس الانصراف انتظرنا لدقائق. انصرف الفصل. ثم نهض دانيال وقبض على يد الشيخ الأعمى. والشيخ سأله بخبث هل بقي أحد في الفصل. فأجابه دانيال أني معه. صاحبي وجاري وربما يبدأ معي دروس القرآن. لم أعرف ماذا كان ينوي. لكن الشيخ طلب أن أقترب ومد يده ليلمس رأسي. فرفض دانيال وقال: في البيت يا شيخ. فأومأ برأسه وسكت. سرنا نحو السلم. نزلنا ببطء. سُلَّمة سُلَّمة. وخرجنا من المدرسة. وبدلًا من السير في شارع ضيق. وبدلًا من مواصلة السير في الطريق الترابي الأقرب إلى البيت والأكثر أمانًا. اختار دانيال السير في الشارع الرئيسي المواجه لباب المدرسة. ثم الانحراف يسارًا إلى الطريق الأسفلتي. الأوسع والأخطر. والسير في شارع منزَل الكوبري ومطلعه. سرنا وعلى يسارنا صفوف من النخلات. وعلى يميننا في الرصيف المقابل مَحالُّ مصفوفةٌ تحت عمارات المساكن الشعبية. ضغطت على يد دانيال مرة أخرى. فكرر نفس النظرة. كان الشارع مرعبًا من كَمِّ المرور وسرعة السيارات. ومع أني كنت أقصى اليسار. على يميني دانيال وعلى يمينه الشيخ. إلا أن ذلك لم يقلل خوفي. كان الشيخ ثَرْثارًا.

يحكي عن أشياء لا أتذكَّر منها شيئًا. يسأل ماذا أعدت له أم دانيال. يقول كلامًا غامضًا عن حبه لدانيال. ثم يعود فيقول: سنبدأ اليوم أول حصة في التحفيظ. ويستدرك: لا بد أن أمك كريمة يا دانيال. من البداية كنت أعرف أنك من بيت أصول. فيما يرد دانيال بالقطَّارة. نعم يا شيخ. أمي تصنع وليمة. البيت بيتك كل يوم.

23

وفجأةً توقف دانيال. قال للشيخ: سنعبر من هنا إلى الرصيف الآخر. تردد الشيخ قليلًا. قال: أسمع زمَّارات سيارات. لكنه استجاب لحركة دانيال الذي طمأنه. انتظرنا لثوانٍ ثم عبرنا الطريق الأول في سلام. ووقفنا في نهر الطريق بجوارنا أشجار صغيرة. السيارات الآن تأتي من يميننا. مسرعةً لأنها تتجه إلى مطلَع كوبري. والشيخ الأقرب لها. تأملني دانيال بقلق. قال لي: سأعبر بك أنت أولًا. عندما أقول لك اعبر يجب أن تعبر بيدك في يدي. ثم سأعود أنا للشيخ. فعلنا ذلك بخوف حين هدأت حركة السيارات قليلًا. ووقفت أنتظرهما على الرصيف الآخر. أمام محل للملابس وتحت عمارة من عمارات المساكن الشعبية. وتحرك دانيال. بحذر وخطوة خطوة. وهو يتابع حركة السيارات ويقيس المسافات. وفي منتصف الطريق ووسط السيارات المنطلقة وقف. تكلم مع الشيخ. كان ينظر إلى يمينه مراقبًا حركة المرور. كنت أموت من الخوف وعربة مقطورة تقترب بسرعة يسبقها سيارات ملاكي. عيناي موزعتان بين دانيال والشيخ والعربة المقطورة. وفي غمضة عين تخلَّى دانيال عن يد الشيخ. انطلق راكضًا كحمامة. وأنا أتابعه بقلب ينتفض. بقي الرجل يرتجف وحده وسط غابة من سيارات تحاول تفاديه. الشيخ حائرًا لا يعرف ماذا يفعل. يتلفَّت يَمنةً ويَسرةً من دون أن يرى شيئًا.

متوسلًا أن ينجده أحد فلا يجد. وأنا قلبي يتمزق من الخوف والألم والقلق. وفي لحظة خاطفة حاوطته السيارات من أمامه ووراءه. وصار نقطة صغيرة رغم ضخامة جسده. وفي لحظة أخرى خاطفة خبطته المقطورة. كان دانيال قد وصل إليَّ بالكاد. ورأيت كما التفت هو ورأى طيران الشيخ إلى الأمام لمسافة كبيرة. رأيت كما رأى هو كيف سقطت عصاه وطارت عمامته. ثم سمعنا صوت ارتطامه بالأرض كدوِيّ انفجار. والانفجار ولَّد دمًا غزيرًا. شدت المقطورة الفرامل بقوة لكنها زحفت على الأرض حتى وصلت إليه ودهسته هذه المرة. وكان دانيال يعانقني وكلانا يرتجف. ساد هرَج ومرَج وصويت وزعيق. اصطدمت سيارات قادمة من الخلف في المقطورة. اصطدمت سيارات أخرى بالسيارات التي اصطدمت بالمقطورة. وتفعَّصت اصطدامات السيارات وشنطها. تكسَّر الزجاج لدرجة أن أرض الطريق كلها صارت مكسوَّة بالزجاج. استحال المكان مسرحًا للجثث والأجساد المغدورة. وأنا شعرت بالدُّوَار.

24

بال دانيال على نفسه. ثم انتبهت إلى أني أيضًا بُلْتُ على نفسي. قلبي المنتفض كاد يهرب من صدري. فسحبني دانيال من يدي لنبتعد عن مسرح الجريمة. لم تحملنا أقدامنا الصغيرة بعيدًا. سرنا بالكاد ثلاث دقائق. أو خمسًا لا أعرف. فأنا لا أعرف تقدير الزمن. ووقفنا عند أحد الأكشاك. طلب دانيال من البائع زجاجتَيْ كوكا كولا. كنا ميتين من البرد ودانيال طلب كوكا كولا. جلسنا على التلتوار نشرب كأننا نتأكد أننا لا نزال حيَّيْن. نبضات قلبي كانت تدق حتى كدت أموت. ركبتاي كانتا ترتعشان بمسٍّ كهربائيّ. لكني لم أتجرأ على سؤال دانيال لماذا فعلت ذلك. أو كيف فعلته. ارتبكت ولم أفهم هل تعمَّد قتل الشيخ أم أنه خاف فركض. هو كان يبدو أكثر صلابةً رغم كل شيء. التبوُّل على نفسه كان شيئًا فوق تحمُّل جسده. نبضات قلبه التي تبلغني أيضًا فوق طاقة جسده. لكنه كان متماسكًا بل وفي لحظة لمحت أنه مبتسم وينظر إلى أفقٍ لا أراه. حين وصلنا إلى منتصف الزجاجة نظر إليَّ بعينين عاديتين. عينين تخلَّتا عن زجاجيتهما. قال لي الآن سينام إبراهيم في سلام. وقبل أن أنطق بكلمة وضع سبَّابته على فمي. قال: الحيطان ليها ودان. قال: هذا سِرُّنا. كان الكُشْك يطلُّ على شارع واسع إلى حد ما لكن حركة السيارات أقل وحركة المارَّة أكبر. سمعنا من

يقف عند الكشك ويقول: شارع الكوبري صار ملعونًا. كل يوم تصدم سيارة أحدًا. وتحدَّث عن الحادثة من دون أي تفصيلة. وسمعنا سارينة الإسعاف. ورأينا عساكر وأمناء شرطة يسيرون بالمكان. سيدة قالت لصديقةٍ لها إن عربية مقطورة خبطت شيخ من المعهد الديني. رجل جاء يشتري علبة سجائر قال للبائع: الراجل اتفرم. المقطورة فرمته. لكن البائع كان غير مبالٍ بما يحدث خارج كُشْكِه. قال لي دانيال: يجب أن نعود إلى البيت الآن. بعد دقيقتين من السير. أو خمس دقائق لا أعرف. فأنا لا أعرف تقدير الزمن. رأينا لافتة ضخمة منصوبة على عمودين حديديين. نصف اللافتة صورة لحسني مبارك. أشرت إليها وقرأت عبارة مرافقة للصورة بصوت مسموع: يجب أن نواجه التحديات العاتية بعقول واعية وأقدام ثابتة. سألت دانيال عن معنى عاتية. قال شديدة مثل الرياح. وفكرت في أقدام ثابتة. وفي أن قدمَيَّ ترتجفان.

25

كان ذلك في نوفمبر عام 1988. في الواحدة ظهرًا تقريبًا. الشوارع مكتظَّة بالتلاميذ. بعضهم يعود إلى البيت في جماعة. وبعضهم يتجه إلى الطريق الترابي للعب ماتش كرة القدم. مَحالُّ الملابس كانت قليلة. ولم يكن إلا محلٌّ واحد للأتاري عادة ما يمتلئ لآخره. الكثير من مَحالِّ البقالة. وأهمها بالنسبة إلينا كان محل التموين. بالإضافة للتموين الشهري كانت ماما تشتري منه المواد الغذائية الأخرى. وأحيانًا على النوتة. المقاهي لم تكن قد انتشرت في كل ركن. وكانت المسافة بين مقهى ومقهى كبيرة جدًّا. واحدة في كل شارع كبير. لا أعرف. لا أتذكَّر تفاصيل الشوارع. والحقيقة أني لم أفهم أصلًا معنى المقهى في هذه السن. وكان تجمُّع مجموعة من الرجال في مكان لشرب الشيشة منظرًا مرعبًا. أوشكت على الوقوع عدة مرات في حفرات الشارع. أو أصطدم بالمطبات المفاجئة. لفتني دانيال إلى العديد من البالوعات المفتوحة. لأنه يعلم أني أسير شاردًا. أتفرج على لافتات المَحالِّ والبلكونات. وفي أثناء حزننا وبَلَل بنطلونينا ضحك هو حين أنقذني من بالوعة مفتوحة. قال: هي دي التحديات العاتية. كان الجو شتويًّا غائمًا ينذر بالمطر. ولم تكن أمطار الأمس قد جفَّت من الشوارع بعد. لقد صنعت حَفَرًا إضافية. دانيال يسير بجواري برقبة مرفوعة وظهر مشدود. أطول مني ومعتزًّا

بنفسه. لم يقلل هذا الاعتزازَ أن بنطلونه مبلول أو أنه هرب من أمام المقطورة. لا أعرف إلى أي مدى تغيرت نظرتي إليه حينها. لكن في لحظة ما ونحن ندور يمينًا نحو شارع يؤدي إلى بيتنا بدا لي بطلًا حقيقيًّا لكنه قاتل. كنت أدرك أنه قتل. وأن القتل خطيئة. لكن هذا القتل بهذه الطريقة ولهذا السبب بدا لي منصفًا وشجاعًا. لكني لم أسامحه. كنت أعرف أن ماما لن تقتنع بذلك. لذلك لن أحكي لها أبدًا. حالما وصلنا إلى شارعنا قال دانيال: انسَ ما رأيت. الآن أدخل لأغيِّر ملابسي وأنام قليلًا. نلتقي بعد الغداء. لكن عبارته كانت مضطربة. كان القلق يبدو على وجهه. لم أصدق أنه سينام. لن يستطيع. وحتى أمنحه بعض الطمأنينة. الطمأنينة التي أنا نفسي أفتقدها. ضربت قبضة يدي في قبضة يده. وظننت أن علامة التضامن هذه كافية ليهدأ. أنا أيضًا كنت في حاجة إلى تغيير ملابسي والنوم. الهروب من هذه اللحظة. لحظة مواجهة نفسي. كنت أخاف كذلك من أن أعترف لماما بمجرد عودتها من العمل. كنت أحتاج إلى النوم لأشعر بأن يومًا جديدًا بدأ. ويجب أن أنسى الأمس. النوم الكثير والطويل والعميق. لأصحوَ في صباح اليوم التالي يا رب. وأنسى اصطدام المقطورة بالرجل الأعمى يا رب. لأنسى صوت ارتطامه بالأرض. ومرور المقطورة فوقه. لأنسى السيارات الأخرى التي اصطدمت بالمقطورة من الخلف. لأنسى عدد الموتى والجرحى الأبرياء. وفي النهاية لم أغيِّر ملابسي. ونمت بالبنطلون

القذر.

26

رأيت في المنام أني أركض مع دانيال فوق مسامير غليظة. رأس كل مسمار بحجم قدمي. كنا في شارع واسع وخالٍ من المارَّة. بناياته من برطمانات صلصة زجاجية. مثل التي تملأ ثلاجتنا. ومن الشرفات الزجاجية يتطلع إلينا أطفال من أعمارنا. منشورين على أحبال الغسيل. ومعلقين من آذانهم. كان الأطفال عرايا ويضربون الهواء بأرجلهم. كأنهم يبدِّلون بدرَّاجة. ويمدون أيديهم كأنهم ماسكون بجَادُون مقلوب. كان إبراهيم من بينهم. لكنه يسوق دراجة حقيقية. مصنوعة من البرتقال المخرَّط شرائح. كلما بدَّل إبراهيم سقطت علينا قشور البرتقال وغطت رؤوس المسامير. فكانت أطواق نجاة من الألم. ميَّزت الشارع حين لمحت الكوبري في آخره. لكنه كان مجرد أسياخ. كان الجو غائمًا وكنت مرعوبًا. وكان دانيال يمسك يدي ويسير بي. وفي لحظةٍ انتبهت إلى أن له شاربًا ولِحْيَة. ويلبس نظارة نظر. فجأة ظهر عمُّو أبو دانيال من العدم. ووبَّخ دانيال لأنه استعار منه قميصًا دون إذنه. وجدنا أنفسنا في بيت دانيال نفسه. وعمو يزعق فيه ويوبخه. فيما كانت طنط أم دانيال تصرخ وتبكي. صحوت مفزوعًا على صويت وصراخ.

27

ميَّزت بين الصخب صوت طنط أم دانيال بالفعل. فانتفضت. قبل أن أخرج من الغرفة تذكَّرت بنطلوني المبلول. فغيَّرت ملابسي بسرعة. في الصالة كانت ماما تتحرك مضطربة نحو الشرفة لتعرف ما يحدث. فيما أخرج من الغرفة وأسألها ما هذا الصراخ. أجابتني بأنها أم دانيال. وأنها ستنزل لترى ماذا يحدث. نزلت معها. كان شارعنا ضيقًا. يسع بالكاد مرور سيارة واحدة. وكانت البيوت صغيرة. من ثلاثة طوابق أو أربعة. كنا نحن في الطابق الأول. وفي الطابق الأول من البيت المواجه لنا شقة دانيال. بلكونتنا تطلُّ على بلكونتهم. وكانت هذه المساحة أرضًا للمسامرات بين ماما وطنط. بمجرد نزولنا إلى الشارع رأيت دانيال محمولًا بين ذراعَيْ عمُّو الذي يركض. ومن ورائهما طنط تواصل الصراخ وتستنجد بماما.

ركضتُ خلفهما والمسامير تؤلم بطن قدمَيَّ. ورأيت خدَّ دانيال مقطوعًا قطعًا عرضيًّا ومُغمًى عليه. دخلنا أول صيدلية كانت على ناصية الشارع. قال الصيدلي إنه يحتاج إلى مستشفى لتخييط الشق العرضي بالخد الأيمن وتخييط اللسان. خرجت ماما مسرعةً لتطلب تاكسيًّا. وبعد ركوب عائلة دانيال أوقفت لنا تاكسيًّا آخر لنلحق بهم. بدا لي العالم مُضبَّبًا. كأن بيني وبينه زجاجًا مشبَّرًا. وخلف الزجاج تتحرك أشباح. وأنا لا أتوقف عن التفكير في أطفال مُعلَّقين

من آذانهم. وأتساءل إن كان عمو عرف ما جرى أم أنه عقاب لسبب آخر.

28

الفاصل بين جنة الطفولة وجحيم البلوغ باب واحد. باب دائمًا مفتوح. يرحب بكل العابرين. وربما يدعوهم بنفسه إلى الخروج. نوع من الأبواب التي تصلح للخروج فحسب. إذ لا يمكن العودة منه أبدًا. قبل موت إبراهيم بشهر نظَّمت ماما رحلة عائلية لزيارة الأهرام وسقَّارة. كان ذلك في بداية الخريف. ماما وطنط أم دانيال كانتا مفتونتين بهرم خوفو. تصوَّرتا بجانبه بكل فخر. ودعتانا إلى التصوير بجانبه. لا زلت أحتفظ بصورة دانيال وإبراهيم وأنا نقف مثل خوفو وخفرع ومنقرع. لكن دانيال وقع في غرام مقابر سقارة. فتنه بالتحديد الباب الوهمي على حائط غرفة الدفن. لا أتذكَّر اسم الملك أو الكاهن صاحب المقبرة. لكني أتذكر هذه الغرفة بالذات: غرفة دفن مستطيلة. على جانبيها حائطان مَكسُوَّان برسوم جميلة تحتفظ بألوان زاهية. وفي العمق تابوت يسَعُ جسد إنسان بالغ. الباب الوهمي مرسوم في الحائط وراء التابوت. باب مرسوم بجمال مذهل حتى يبدو حقيقيًّا. شرحت لنا ماما أن الروح تعبُر من خلال هذا الباب إلى العالم الآخر. أما الجسد فيبقى في التابوت. الجسد لا معنى له. إنه مكوَّن من أجل الفَناء. أما الروح فمكتوب لها الأبدية. ليس بوسع الروح أن تعود مرةً أخرى إلى الجسد. هذا الانفصال هو الموت. لكن الموت تعبير مجازي. لأن الروح لا تعرف الموت. فكرت يوم مات بابا أن روحه

لا تزال تعيش معنا. وأنه يطلُّ علينا من خلال صوره في الحائط. قالت ماما إن الباب الوهمي باب للخروج فحسب. بمجرد الخروج منه نبلغ العالم الآخر. وميزان القلب ما يحدد إن كنَّا سنبقى للأبد في الجنة أم مصيرنا الفَناء الأبدي. الفكرة الخلَّابة التي أسرت دانيال ولم أستوعبها أنا صارت مصيرنا. إذ في هذا اليوم من نوفمبر لعام 1988 خرجنا للأبد إلى عالم آخر. تجاوزنا بابًا وهميًّا يفصلنا عن الحياة. لنستقر في عالم مُترَع بالخوف.

29

انتظرنا إجراء عملية لتخييط الخدّ وتخييط اللسان في المستشفى. كان عمو وأحد الجيران في جانب. وماما مع طنط في جانب آخر رجَّحت أنا كفَّته. سمعتُ طنط تحكي لماما أن الشيخ طلب من دانيال أن يرافقه اليوم حتى بيته. لأن مساعده لم يأتِ. ودانيال وافق. وفي الطريق أثناء ما كانا يعبران الشارع تفاجأ دانيال بعربة مقطورة تقترب منهما. فترك الولد الشيخ وركض. (في هذه اللحظة مر إبراهيم من أمامنا ودخل غرفة العمليات. كان يرتدي بالطو الطبيب الأبيض ولم يلتفت لأيٍّ منا كأننا هواء). قالت طنط إن دانيال ارتبك كطفل. لم يعرف كيف يتصرف. المقطورة كانت أمامه وشيخه ضخم جدًّا وصعب الحركة. كان عليه أن يختار إما أن يموت مع الشيخ أو ينقذ حياته ذاتها. فاختار دانيال حياته ذاتها. وترك الشيخ للموت. تنهدتُ. قلت الحمد لله أن دانيال لم يخبر عمو بالحقيقة. لم يحتمل أبوه تصرفه. قالت طنط إنه اعتبره تخليًا عن شيخه. نذالة أن يتركه للموت. واعتبر ابنه قاتلًا حتى لو من دون قصد. لذلك صفعه على وجهه صفعةً عنيفة. فارتطم الولد بحائط به حديدة ناتئة قطعت خدَّه. وأدت قوة الصفعة إلى قطع طرف لسانه. فقد دانيال الوعي في الحال. وحاولت طنط منع الدم السائل من الخد بالبُنّ. حينها صرختْ وأصيبتْ بالهيستيريا. وتوتر عمو لأنه تفاجأ هو نفسه بقوة الصفعة

وأثرها. بكت ماما. وعانقت طنط المنهارة وربَّتت على كتفها. قبَّلت رأسها وطمأنتها بأنه سيكون بخير. (حينها خرج إبراهيم من غرفة العمليات. نظر إليَّ وأومأ برأسه ليطمئنني. قلت لماما هذا إبراهيم وأشرت إليه. نظرت هي للأمام ثم ربَّتت على ساقي اليمنى. قالت البقية في حياتك. إبراهيم تعيش إنت. معلش). في الجانب الآخر كان عمو مذعورًا. سمعته يقول لجارنا كانت صفعة. مجرد صفعة صغيرة. الولد انهار ووقع كانه ورقة. وانا وحدى كنت اعلم لماذا انهار دانيال ووقع مثل ورقة. لأني أنا نفسي كنت مثل ورقة. كنت أرتعش من داخلي. كان قلبي ينتفض. وعرفت لأول مرة معنى الرعب. معنى ألا تحملني ساقاي. كأني أقف على الهواء. وفكرت حينها أن هذا هو الموت: ألا تحملني ساقاي. وفي غمرة الكوارث حمدت الله أن دانيال لم يذكر اسمي. إذ ماذا كنت سأقول. كنت في الثامنة. أفهم أشياءَ. أُداري أشياءَ. ألتزم الصمت أحيانًا. لكني لم أكن قد تعلمت الكذب بعد. ولا اعتبرت التواطؤ حينها كذبًا. مع ذلك شعرت أني أسير على مسامير برؤوس غليظة.

30

خرج دانيال من غرفة العمليات بعدَّة غُرَز في خده. بفم مغلق ينقصه جزء من لسانه. هرولت إليه طنط ومن ورائها عمو. فيما التزمنا نحن مكاننا. مع ذلك تجاهل الجميع ونظر إليَّ. حدَّق فيَّ بقوة. والحقيقة لم أفهم نظرته. فارتبكت قليلًا. اقتربت منه. وقلت كلامًا مثل كلام الكبار. ستكون بخير وهذه الأشياء. لا بد أنه فكر أن هذا الكلام لا يناسبني. أو ربما كان ينتظر كلامًا آخر لا أعرفه. مد يده في أول إشارة للحياة وتحسس شعري وهز رأسه. كأنه يقول كل شيء على ما يُرام. حين دققت النظر في عينيه رأيت في الحدقة اليمنى طريقًا سريعًا وسيارات طائشة وهو يقف مع الشيخ في منتصف الطريق. ثم رأيته يركض ويترك الشيخ للموت. حين فُقت من شرودي كان يهز رأسه بالنفي. كأنه رأى في عينَيَّ نفس المشهد. أو ربما كان يقول لا تتكلم. التزم الصمت. هل قال دانيال الحقيقة وكذبت طنط على ماما لتتستر عليه. أم أن دانيال من دارَى الحقيقة ولم يأتمن أحدًا سواي. هل كان دانيال سيحكي لي عن خطته لو لم أرافقه. أم كان سيغدو سِرًّا بينه وبين إبراهيم. هل دانيال قاتل أم بريء حقيقةً.

31

أثناء خروجنا من المستشفى لمحت إبراهيم مرةً أخرى. مرَّ راكضًا في إحدى الطرقات. نظر إلى دانيال وغمز له بعين. رأيت ذلك والله. ورأيت دانيال يبتسم له. قلت لماما انظري إنه إبراهيم. فقالت لي تهيؤات يا حبيبي. كان صوتي مسموعًا. لدرجة أن دانيال نظر إليَّ وأومأ برأسه بالإيجاب. لكنها إيماءة مَن يقول احتفظ بالسر. فعدت مرة أخرى إلى صمتي. وفهمت أن كل ما يخص إبراهيم غدا سِرًّا هو الآخر. شأنه شأن ما يخص دانيال. افترقنا عند باب المستشفى. قلت لدانيال نلتقي في بيتك. وأشرت له بالوداع. فيما كانوا يركبون التاكسي. وسريعًا ما قالت لي ماما دعه يسترِحْ. سنزورهم في الليل.

هل مات إبراهيم أم لا. وإذا مات فمن هذا الذي ظهر في المستشفى. وقبل ذلك من هذا الذي تجلى في الغرفة لدانيال وأضاء السقف وسحبه إلى مكان بعيد لا أعرفه. هل يبقى الموتى بعد رحيلهم. هل ينتظرون شيئًا. هل يكلفوننا بمهام يجب علينا تنفيذها. ألا تصعد أرواحهم إلى الله بعد أن تُترك أجسادهم في القبر. لماذا ظهر إبراهيم لدانيال وحده في غرفتي. ثم ظهر لي أيضًا في المستشفى. هل في المرة الأولى جاء ليكلِّف دانيال بشيء فحسب. وفي الثانية ظهر لي كنوعٍ من الرضا عني لأني شاركت في الجريمة. حتى لو كانت مشاركة بالتواطؤ. وإذا لم يمُتْ فأين هو. لماذا قالوا إنه مات. لماذا لم يُصلِّ عليه أبوه صلاة الجنازة. ولماذا لم يُقِم سرادق عزاء ويتلقى السلوى من الأقارب والجيران. لماذا تعجل بدفنه كأنه يتخلص منه. أيكون السبب أنه لم يتبقَّ من جسده شيء بعد أن دهسته العربة النقل. أم يكون السبب ما فهمه دانيال ولم أفهمه أنا من كلام أبي إبراهيم: أنه ألقى بنفسه تحت العربة. أنه انتحر. دانيال يصدِّق هذه الرواية. دانيال أيضًا قال لي إن إبراهيم هرب من المدرسة لينتحر. لا أعرف. أنا لا أعرف شيئًا. لأن بين دانيال وإبراهيم أسرارًا كنت أنا على هامشها. الحقيقة أني لا أعرف هل راودتني هذه الأسئلة في وقتها أم بعد ذلك. ما أنا متاكد منه أني كنت في حالة حزن

وألم.

33

في غرفة دانيال وتحت ضوءٍ خافتٍ عرفت أنه لم يفقد الكلام كليةً. لكنه لن يتكلم بعد الآن إلا معي ومع إبراهيم. قال لي بلسانٍ مبتورٍ طرفُه أنه حكى لأبويه عن الحادثة. لم يكن بوسعه أن يحمل هذا السر الكبير وحده. حتى لو كنت أنا شريكه فيه. حين عاد إلى البيت في هذا اليوم المشئوم كان البيت خاليًا. وشعر بالخوف. كل محاولات النوم فشلت. صرخات الشيخ كانت ترن في أذنه. ومشهد رفعه في الهواء وارتطامه بالأرض كان يتكرر بشكل كابوسي. لفَّ في البيت ودار ليهرب من الخوف. وبكى. أخيرًا بكى. لكنه لم يعرف هل بكى الشيخ أم بكى إبراهيم. كانت الصورتان تتداخلان. تتعاقبان. ورغم أنه لم يرَ حادثة إبراهيم فإنها تجلَّت في ذهنه. بكل تفاصيلها. لذلك اختار نفس الشارع. اختار نفس المكان بالتحديد. اختار شاحنة بنفس المواصفات. لترقد دماء الشيخ فوق دماء إبراهيم. فيشعر إبراهيم بالثأر. قال لي دانيال إن الدم لا يرتاح إلا بدمٍ آخر. وأن الأضحية في الإسلام تسمَّى فداء. فذبحُ كبشٍ فداءُ روح إنسان. ثم شرح لي العقيقة ولم أكن قد سمعت عنها من قبل. قال إن ذبح الأب لخروف يفدي به روح ابنه المولود. إلى مَن تُقدم الأضحية. إلى من نُقدم العقيقة. كان ثمَّة فاعل مجهول. يقبع في الظل. يمتلك القوة ويرغب في الشعور بالرضا. ينتظر منَّا أن نفعل ذلك. لكني لم أستطع

أن أحدده. كان صورة مجردة تدور في ذهني فحسب. فرسمت لوحة عن أطفالٍ يتصارعون وأبٍ يجلس في الشرفة يتأمل الغروب.

34

كان دانيال في هذه الحالة حين عاد أبواه من العمل. الأم وقفت تعد الغداء. والأب جلس أمام التلفزيون الأبيض في أسود يشاهد فيلمًا من الخمسينيات. قالت الأم فجأةً لكن هذه الحادثة غريبة. كيف يعبُر شيخ أعمى الطريق بمفرده. أجابها الأب بأنهم يقولون إن الشيخ كان برفقة طفل. وإن الطفل تركه في منتصف الطريق. وركض أمام زحام السيارات. ثم نظر إلى دانيال. وكان واقفًا بين الأم والأب. سأله إن كان سمع شيئًا عن الحادثة. فأجاب دانيال بنعم. أنا كنت هذا الطفل. قالها بهذه البساطة. بهذا الفخر المكتوم. بهذه القناعة. وبهذا الخوف الذي يُرجف القلب. كان يمكن أن يكتفي بهذه المعلومة. أو يؤكد أنه ركض خوفًا من السيارات. لكنه اعترف بأنه ترك الشيخ في منتصف الطريق. لأنه يريد له الموت. فكَّر دانيال في شرح الأسباب. في توضيح عبارة تركتُ الشيخ في منتصف الطريق. في الفصل بين الرغبة في موت الشيخ والقدرة على قتله. في تراجعه النهائي عن الإقدام على القتل. كان يمكن أن يحكي ماذا يفعل الشيخ في الفصل. وماذا فعل في إبراهيم في اليوم السابق. لكن الصفعة التي تلقاها بقوة على خدِّه الأيسر لم تسمح له بذلك. صراحة دانيال كان عقابها ندبةً تقطع خدَّه الأيمن. قَطْعًا في طرف اللسان. ومزيد من الصدق لن يؤدي إلا إلى مزيدٍ من البتر.

فضَّل أبو دانيال أن يتستَّر على ابنه. أن يعتبرها مجرد حادثة ويُشيع ذلك. كان الحي بأكمله قد عرف أن دانيال هو الطفل. ولم يُدِنْه أحد لانتفاء القصدية وحداثة السن. حادثة. مجرد حادثة. طفل خاف من السيارات فركض. حدث بسيط. مثل طفل لا يسير على الرصيف ويحب السير على التلتوار. مثل طفل يركض في الشارع على ساق واحدة ليحقق تفوقًا سينساه بعد دقائق. أو مثل طفل يرمي الديناميت من النافذة ثم ينتفض خوفًا من الصخب. وبالنسبة إلى الأب صورة الابن الجبان أفضل من صورة الابن القاتل. وبالنسبة إلى الأب هذه هي الحقيقة الوحيدة. لا يجب أن تكون ثمَّة حقيقة أخرى. هذه هي الحقيقة وما من أسبابٍ لقتل الشيخ. والحقيقة تُثبَّت بالإلحاح. بترديدها ليلًا ونهارًا. برؤية التصديق في عيون المستمعين وهزات رؤوسهم المتأثرة. لقد عاش دانيال بعد أربعة أبناء ماتوا جميعًا في أيامهم الأولى. وليس بوسع الأب المهزوم من فقدان أطفاله الرُّضَّع. ولا بوسع الأم التي حملت بطنها أربعة أطفال لتسعة أشهر ماتوا واحدًا وراء الآخر بين ذراعيها. ليس بوسع أيٍّ منهما أن يضحي مهما كانت الأسباب بهذا الطفل. الطفل الذي سمياه دانيال حتى يعيش.

36

كان اختيار الاسم بأمر واضح من عرَّافة غجرية. عرَّافة تجول شوارع الحي والمدينة. سيدة عجوز بوشم على ذقنها ووشم آخر على جبهتها. ظهرت العجوز قبل عام واحد من ميلاد دانيال. طرقت باب الشقة كمبعوثٍ إلهي. ومن دون تحية طلبت من طنط شايًا في فنجان وقطعة خبز. ولم تنتظر أن تدعوها للدخول. دخلت كأنه بيتها ذاته. ثم جلست على الأرض كاختيارٍ وحيد. فصارت بجلبابها الأسود مثل خيمة صغيرة. قالت السيدة ستنجبين مولودًا. لن يموت مثل إخوته السابقين. لكن لكي يعيش يجب أن تسميه دانيال. يؤمن الإنسان بالحلم أكثر ما يؤمن بالحقيقة. يصدِّق صوت الفطرة أكثر ما يصدِّق صوت العقل. يبحث عن الأمل حتى في وسط الخراب. لذلك صدَّقتها طنط على الفور. وابتسم عمو. لم يكن لدى أيٍّ منهما أسباب لتصديقها غير الرغبة المطلقة. الرغبة في إنجاب طفل ويعيش. لا يهم أن يكون ولدًا أو بنتًا. وحين حملت بعد شهور قليلة أصبح دانيال. دانيال يتحرك في بطن الأم. دانيال يضرب بقدميه. دانيال الآن نائم ويحلم. ودانيال يرقص على إيقاع المزيكا. فكرت الأم أن السر في الاسم الغريب. كأن القدَر يتآمر على طفل باسم معروف. الاسم الغريب مناورة. خُدْعة. قناع يمر من خلاله المولود إلى الحياة. كما يمر أطفال آخرون في قرى بعيدة من كُمِّ العمدة

عند الميلاد. لأن مرورهم من كُمِّ رجلٍ ذي سُلطة يعني أن بوسعهم مواجهة صعوبات الحياة. قالت العرافة: ثم إن دانيال اسم نبي. ولم تعرف أنه نبي توراتي. فصار دانيال. الوحيد بين كل جيرانه وزملائه بهذا الاسم.

بالصفعة ضاعت فرصة الاعتراف الكامل عن أسباب الحادثة. كأن الصفعة لم تكن عقابًا فحسب. بل إعلانًا عن عدم الرغبة في معرفة الحقيقة. في تلك الليلة نمت في بيت دانيال. استجابةً لرغبته. وقطع إبراهيم بالقول الفصل. أمر دانيال ألَّا يحكي لأحد ما شاهده في الفصل. رغم الانتقام ورغم الدم الذي غطى الدم. فإن إبراهيم لا يزال متألمًا. وسيؤلمه أكثر أن نتذكَّره في وضع التعدي عليه وليس وضع البراءة والضحك. سيؤلمه أن تعرف عائلتنا وعائلته أنه ضحية. لم أفهم كثيرًا رأي إبراهيم. لكنني شعرت به. ملأ إحساسي. تعاطفت معه. من دون أن أفهم. بعد الحادثة بات دانيال يرى نفسه كدُمْيَة. كان يرسم في إسكتشات رسم صورته ذاتها. دانيال النائم على السرير بعقدة حول رقبته وخيط ممتد إلى السقف. ويد تمسِّد الخيط بالسبَّابة والإبهام. دانيال السائر في طريق متصلًا بنفس الخيط. دانيال يأكل. دانيال يبكي. دانيال يقرأ. وفي كل أحواله كان الخيط عنصرًا أساسيًّا في اللوحة. في تلك الأيام كنت أخرج مع دانيال. لم يكن يتكلم إلا بالكاد. لكنه من آنٍ لآخر كان يشير لرجل ويقول إنه دُمْيَة. هذه البنت دُمْيَة. هذا الولد دُمْيَة. هذه المرأة دُمْيَة. وكان يشير إلى أعلى ويسألني هل ترى يا دانيال الخيوط.

قبل الزواج أعدَّ أبَوَا دانيال غرفةً لطفلين. فشغلت أنا بمحض صدفة السرير الآخر. وفي البيت المواجه أعد أبواي غرفة لطفلين. فلم ينجبا سواي. في تلك الليلة أطفأنا الأنوار. أباچورة صغيرة بجواري أضاءت ضوءًا خافتًا. انتبهت للمرة الأولى لصور معلقة على الجدار. وتأملتها. ثلاث صور لأطفال رُضَّع يشبهون دانيال. لكن حين اقتربت منها انتبهت إلى اختلافها. لقد التُقطت الصور في نفس السن تقريبًا. ربما في الأسبوع الأول. لكن رداء كل واحد فيهم مختلف عن الآخر: الأولى برداء أبيض. الثاني أزرق. الثالث أسود. حكى لي دانيال أنه مجرد تشاؤم من لون. الابن الأول مات من دون صورة. فوقع في طيّ النسيان كأنه لم يعبُر بالدنيا. مع الابن الثاني فكَّر الأب أن الصورة قد تمنحه الوجود. فالتقط له صورةً برداء أبيض. حين مات ظنت الأم أن العيب في اللون. أن الأبيض كلون مضاد للحداد كان تحديًا للموت. فاستفزه. مع الابن الثالث اختارت الأم رداءً أزرق. بظن أن الأزرق لون الحياة لأنه لون البحر. كأنه رجاء مستور. فالتقط له الأب الصورة ليثبت وجوده. لكن الموت انتصر على الحياة. كان الرداء الأسود مع الابن الرابع إحدى طرق الاستسلام. قالت الأم إن جاء الموت يبحث عنه فها هو في انتظاره. فالتقط الأب الصورة بيد مهزوزة. والموت الذي لا يفهمه أحد إلا دانيال جاء

وحمل الرضيع إلى الجنة. مع دانيال تخلَّى الأب عن هاجس الصور. ومع نبوءة العرَّافة تخلت الأم عن حُمَّى الألوان. فعاش دانيال بلا صورة لطفولته.

39

في عام 1997 دخلنا أنا ودانيال السينما لنشاهد فيلم Sleepers. فاتت تسعة أعوام على الحادثة. الجرح مفتوح. الذكرى حاضرة. الدم لم يتخثَّر بعد. لم نكن نعرف قصة الفيلم حين دخلنا. ظنَّناه في البداية فيلم جريمة وأكشن. لكنه لم يكن كذلك بالتحديد. أربعة أصدقاء أشقياء أصغر مني. ربما كانت أعمارهم 14 سنة. أرادوا سرقة سندوتشات سُجُق من عربة بعجلات تقف بالشارع. تنتهي المغامرة بانفلات العربة من أيديهم. تتدحرج على سلم يؤدي إلى المترو. تدهس عجوزًا في منظرٍ يمزق القلب. يُدان الصِّبيَة بالسجن في إصلاحية. بداية من هذه اللحظة يبدأ الفيلم حقيقةً. كل المشاهد في الإصلاحية كانت تشير إلى تعذيب الحراس للصبية الأربعة. قال لي دانيال الحقيقة ليست كما تبدو. لقد مرَّ الفيلم على الرقابة وقصوا منه مشاهد مهمة. قال إنه يعرف المشاهد المقصوصة. ليس لأنه شاهد الفيلم من قبل. وإنما لأنه يفهم معنى هذه النظرات والإيماءات. أشار لي أن أتأمل نظرات الصِبية. نظرات الحراس للصبية. قال إنها ليست مسألة تعذيب. وإنما الأمر اعتداء جنسي. طلب أحد الصبية (كان شايكس لو لم تَخنُّي الذاكرة) من القس (روبرتو دي نيرو) ألا يزوره مرة أخرى. فهم دانيال من نظرة الولد ما حدث له. تعرَّف على إبراهيم في هذه النظرة وبكى. وبعد سنوات حين صار الصبية شبابًا. في

مشهد البار. حين رأيا الحارس المعتدي يتناول عشاءه. قال لي دانيال إنهم سيقتلونه الآن. وبعد دقائق قتلوه. تحمَّس دانيال جدًّا. وقف في وسط السينما يصفق كالمجنون. ظل يهمهم بكلمات لا يفهمها أحد. متمنيًا مزيدًا من الطلقات. وألَّا يتوقفوا أبدًا. حينها رأيت دانيال وهو يعبُر الطريق بالشيخ. يتركه أمام الشاحنة. ويركض. لم أفكر إن كان القتل سيؤدي بهم إلى السجن الأبدي أو الإعدام. لم تهمّني العاقبة أبدًا. ورأيت مثل دانيال وجه الشيخ في وجه الحارس. رأيت في السجن المدرسة التي سلبت منَّا إبراهيم. بدأت محاكمتهم بتهمة القتل. ثمَّة سعادة كانت تتسرب إلينا. سعادة لا زلت أشعر بها الآن. لأن مايكل (براد بيت) وكيل النيابة. لأن مايكل كان من الأصدقاء الأربعة ذاتهم. ومثلهم تعرَّض للسجن والاعتداء. حينها قال لي دانيال إنه سينتصر للعدل. وليس للقانون. وبالفعل قرر مايكل أن يتخلى عن العدالة المزيفة. دافع عن العدالة الحقيقية. قرر مهما كان الثمن أن يبرِّئ صديقيه. ثمة مشهدان كانا أمامي: شهادة القِسّ أن الولدين كانا يشاهدان معه مباراة لكرة السلة وقت الجريمة. ودانيال يقبض على يدي. قلبانا ينبضان بخوف شعرنا به حين صدمت الشاحنة الشيخ. وانتظرنا من القس أن يتحلى بأخلاق العدل. كنا مرعوبين من أن يصدِّق أن الكذب خطيئة كبرى. ما كان غامضًا اتضح في الثلث الأخير من الفيلم. جاء مشهد عابر عن الاعتداء. حكى شايكس للقس عمَّا جرى لهم في

الإصلاحية. حكي مُلغِز وشبه غامض لكنه كشف الحادثة. قال لي دانيال أرأيت. كنت أعرف. لا يحتاج المُعتدَى عليه أن يقول لنعرف. يكفي النظرات. يكفي أن نتأمل هذه النظرات. هذا الانكسار. هذه الهزيمة. لما خرجنا من السينما اعترف لي دانيال. اعترف بأن الشيخ اعتدى عليه. اعتدى عليه في أيام سابقة على اعتدائه على إبراهيم. وأنه جرب المشاعر نفسها.

40

حلمت بإبراهيم بعد الحادثة بأيام. كان جميلًا فوق العادة. كان بجسد سليم كأنه لم يتعرض لحادثة. ورحنا نتجول معًا بشوارع الحي. وجدنا أنفسنا أمام باب هائل. ينتصف سورًا يشبه أسوار القاهرة. دفع إبراهيم الباب وعبرنا. وجدنا وراء الباب صحراء. رمال ذهبية تلمع تحت ضوء القمر. كان ثمة كثبان رملية تحمل شواهد قبور. كان إبراهيم يحدثني بكلام لا أفهمه. كان مبتسمًا. وأنا كنت مأخوذًا تتضارب مشاعري ما بين الخوف والغبطة. في النهاية سألني أتحب البقاء هنا. قلت: لا. أحب العودة للبيت. فاصطحبني من يدي وفتح لي الباب. ودَّعني. وقبل أن يغلق الباب قال عبارة وكررها: لا تفارق دانيال. فأومأت برأسي في طاعة. صحوت مفزوعًا. كان الليل لا يزال يغلِّف المدينة. والمطر لم يتوقف. كنت مذهولًا من نضج إبراهيم. كأن العبور للحياة الأخرى يمنح النضج. أو لأنه يمنح الحقيقة فالنضج نتيجة طبيعية له. بدا لي أبًا رغم أن هيئته لم تتغير شيئًا. ازداد جمالًا لكنه لم يَبدُ ظاهريًّا أكبر من سِنِّه. كان رصينًا على عكس عادته. كان صامتًا بعينين تتكلمان أكثر مما يقوله لسانه. حتى ثيابه التي ارتداها كانت غريبة. كأنه ينتمي إلى بلدٍ آخر. لا أعرف إن كان ذلك حقيقة أم أني توهمت ذلك: كان به شيء نوراني. كأنه بعبوره للحياة الأخرى اكتسب شيئًا إلهيًّا. كرَّر عبارة لا تفارق دانيال

بنبرة هادئة. إلا أنه أقلقني على دانيال. جلست في السرير والصور تتعاقب على ذهني: أنا وإبراهيم ودانيال في طريقنا إلى المدرسة. أنا وإبراهيم ودانيال نتقاسم الغداء في بيتنا. نحن الثلاثة نركل علب الكانز والطوب في سيرنا. نلعب الكرة في الشارع مع جيران وزملاء. ثم إبراهيم لوحده على حِجْر الشيخ. ثم إبراهيم وحده يلقي بنفسه تحت شاحنة نقل. ثم إبراهيم وحده يموت. وفي لحظة خطر لي أن دانيال سيعزِّل من بيته. وأنى سأبقى وحيدًا.

41

في يوم آخر حلمت بدانيال في سُرَادِق عزائه. كانت عائلته حزينة تتلقى السلوى. وهو يرفض أن يمدَّ يدَه لمُعزِّين يعاملونه كفرد كبير. في هذا الحلم كان دانيال حانقًا. ومن بين كل الموجودين اختارني ليراقبني بالنظر. وأنا كنت أراقبه بتضامن. ثم اقترب مني وسحبني من يدي. رحنا إلى بيت غريب عرفت أنه بيت الشيخ. رغم أني لم أزُرْ بيته من قبل. عبرنا الصالة ودخلنا حجرة النوم وكان النور مُطفأً. سحب دانيال اللحاف. سحب سروال الشيخ. وأخرج سكينًا من جيبه وبتر له عضوه. حينها انتفض الشيخ وزاد رعبه وألمه. وظل يحدِّق في نافورة الدم المتفجرة من بين ساقيه. يتلفَّت حوله ويطلب النجدة ولا أحد يسمعه. ثم رأيتُنا جالسين تحت شجرة جُميَّز هائلة. وإبراهيم يناولنا حفنة من الجميز فنأكلها ونشكو مرارتها. فيقول لي في الأول مُرَّة بعدين هتتعوِّد وهتعجبك. كانت شجرة الجميز تقع على طريق يُسمى طريق 11. وكانت جزءًا من حديقةٍ ملأى بالنخل وأشجار الجوافة والبرتقال. قضيتُ الليلة بين اليقظة والنوم. حلمتُ بأحلام كثيرة أخرى متداخلة من تداخلها شعرت أني في متاهة. استيقظت عند الفجر مرعوبًا لسبب لم أتبيَّنه. وفي الصباح انتظرت أن يكون يومًا عاديًّا. لكني كنت أعلم أنه لن يكون عاديًّا. في هذا اليوم كانت عائلة دانيال تلمُّ عزالها لترحل إلى حيٍّ آخر. وأنا بالتالي يجب أن

أعزِّل وراءهم. لأني ظِلُّ دانيال. لأني دانيال الآخر.

لا العرَّافة كانت تعرف. ولا أم دانيال وأبوه كانا يعرفان قصة دانيال في العهد القديم. ومن غرابة الاسم وسؤال الناس عنه بدأ دانيال يبحث عن القصة. وبدافع الفضول أولًا فتح الكتاب المقدس. وقرأ سِفْر دانيال التوراتي وأحد حكماء بابل. وعلقت في ذهنه عبارات ودوَّنها مثل "وكان دانيال فهيمًا بكل الرؤى والأحلام". ثم حفظ القصة وظلل يرددها عليَّ في كل الأوقات.

43

بعد أيام من حادثة القتل أو بعد شهور. لا أعرف فأنا لا أعرف تقدير الزمن. جلس دانيال وقرأ: "وفي السنة الثانية من مُلك نبُوخذ نَصَّر، حلم نبوخذ نصر أحلامًا، فانزعجت روحه وطار عنه النوم". فاستُدعي المجوس والسحرة والعرَّافون والكلدانيون ليخبروا الملك بأحلامه. فإن فلحوا منحهم الهدايا. وإن خابوا قطعهم إربًا. فلما عجزوا أمر بقتل حكماء بابل. واستدعوا دانيال فجاء وحكى للملك حلمه وتفسيره. قال دانيال: "أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم البهي جدًّا وقف قُبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد. صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نُحاس. ساقاه من حديد. قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كنت تنظر إلى أن قُطع حجر بغير يدين. فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق. وصارت كعُصافة البيدر في الصيف، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلًا كبيرًا وملأ الأرض كلها. هذا هو الحلم فنخبر بتعبيره قُدَّام الملك".

وفسَّر دانيال الحلم: "فأنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك. ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض. وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد. لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء. وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد، فالمملكة تكون منقسمة".

45

يوم عزَّل دانيال إلى حَيٍّ آخر حلمت بمدينة دُمى كاملة. كنت فيها أنا ودانيال وإبراهيم. وكانت السماء مرصَّعة براحات يد كبيرة. بأصابع مهولة أكبر من الشمس نفسها. وكان يتدلى من الأصابع خيوط لا نهائية. في نهاية كل منها عقدة ملفوفة حول رقبة دُمْيَة. كانت الدُّمَى تتطاير في الجو. تطفو على وجه الأرض. تتمايل كأن الأرض فقدت جاذبيتها. كأننا نعيش في الفضاء ولا نعرف المشي على قدمين. قال لي دانيال: انظر يا دانيال إلى عيون الدُّمَى. فكانت عيونها زجاجية. قال لي دانيال: انظر إلى عينَيَّ. فرأيت عينين زجاجيتين. حينها بكى إبراهيم من دون سبب نعرفه. قال دانيال: لا تشغل بالك به إنه برج السرطان. وابتسم. كانت دموع إبراهيم مثل البِلَّوْر المتساقط على خدين. وحين ابتسم دانيال لمعت عيناه كانعكاس النور على الزجاج.

استقر دانيال في الطابق الخامس بالحي الجديد. فيما اختارت عائلتي الطابق السادس في البناية المواجهة. حين مات أبوه مات أبي. وحين ماتت أمه ماتت أمي. وحين تزوج تزوجت. وخلال سنوات لم نعُد أصدقاءً كما كنا. تقطَّعت بيننا الجسور. ظللت أراقبه من بعيدٍ كأبٍ يحرس ابنًا. من دون أن يتدخل في شئونه. وكان يتجاهلني كأنه يريد التخلص مني. فهمتُ مع الوقت أن عدوَّنا الحقيقي هو

الشخص الذي يعرف نقيصتنا. الشخص المطَّلِع على سرِّنا المخزي. وكنت أنا بالنسبة إلى دانيال هذا العدو.

العصر الثاني

دانيال قبل وصوله إلى الأرشيف

1

الأصل في الحياة هو التعاسة. طرق مُلغَّمة بالأحزان والخسائر.

هذه الوحدة التي لا يملؤها أحد. هذا الركض نحو العدم ومعانقة اللاشيء. في الأثناء ننام. نُخدَّر ونحلم. نتسلل إلى أرواح ونخترق أجسادًا. لا لشيء إلا الهروب من تعاستنا. إلا نسيانها المؤقت. إلا الوصول إلى طرف متاهة أو الوصول إلى نهاية متاهة. والبدء من جديد في نفس الدائرة. سلسلة من الخروجات بلا عودة وبلا وصول. منذ خروج آدم من الجنة. ثم خروج المولود من الرَّحِم. سلسلة من المطاردات لا تنتهي بالموت. لأن الموت نفسه خروج من الحياة والتِّيه في العدم. الحَوْم حول الحياة بلا جسد. ما يضيف إلى التعاسة العجز والحرمان.

كان موت أبي خنجرًا رشق في قلبي. كان قد قاطعني نهائيًّا منذ يوم موت الشيخ. أربع سنوات متواصلة لم يوجِّه لي كلمة. لا تجمعنا مائدة. لا تلتقي عيناه بعينَيَّ. ويتجنب أي لقاء بالصدفة بيننا داخل البيت. لم يلِنْ قلبه أمام ذُلِّي. ولم يليِّن قلبَه كلماتُ أمي وحيرتها. انسحب من حياتي

كليةً. تركني في هوَّة من الوساوس والخوف. مع ذلك كان عندي أمل أن يلين. أن يأتي في صباح ويقول لي صباح الخير. أو يؤنبني على فعلتي فأكشف له ما حدث. كل يوم كنت أسير بهذا الأمل. أبدأ به يومي وأختم به ليلتي. لكنه أغلق عليه بابه. ترك لي البيت بحسب ظنِّه لأفعل ما أشاء. موقف أبي صنع منا ثلاثة وحيدين. هو في غرفة. أنا في غرفة. وأمي في الصالة تشاهد التلفزيون حينًا وتنتقل بيننا حينًا. كانت تائهة وحزينة. اعتبرني أبي قد مُتُّ. وعاش ما تبقَّى من حياته في حِداد على ابنه الوحيد. ثم سريعًا ما وقع أسيرًا للمرض. مع ذلك أصرَّ على ألا ألمسه. وأصر على ألا يقبل مني كوب ماء. كان حينها لم يبلغ الأربعين. لكنه كان يشيخ كل يوم عشرة أعوام. حتى بلغ في النهاية شيخوخةً لم يبلغها أحد.

2

هل كان أبي مبالغًا في حزنه. أم أن فساد الأحلام يتمتع بقوة انتزاع الحياة منَّا.

كان الجحيم وراء باب وأنا فتحته من دون قصد. فهبَّت علينا النيران من كل مكان. والتهمت أبي قبل الأربعين بشكل نهائي. فيما خلَّفت وراءها جثتين. هيكلين بشريين. أحدهما لي والآخر لأمي. نفت أمي حين سألتُها هل انتحر أبي أن يكون انتحارًا. قالت مات ميتة طبيعية. وكتب دكتور الصحة أن الوفاة ناتجة عن توقف القلب. تناول أبي علبة كاملة من أقراص مُنوِّمة كنت اشتريتها له في الليلة السابقة. لكني لم أحب أن أفكر حينها أنه قرر إنهاء حياته للتخلص من ألمه أو للتخلص مني.

جسد أبي المُسجَّى فوق ترابيزة السفرة المكسوَّة ببطانية ووسادة صغيرة. الماء الدافئ المنهمر على جسد هزيل. الصابونة تحت يد الحانوتي ورغواتها على شعر صدره. ذراعاه المفرودتان بجواره باستسلام. راحة يده التي تركت في وجهي ندبة ومن قبل كانت يدًا تملِّس على شعري. وجهه الميت وعيناه المغمضتان للأبد. كل ذلك حفر في قلبي حزنًا لم أحتمله ففقدت الوعي. حين أفاقوني ظللت أبكي لأيامٍ بلا انقطاع. حتى إني كنت أبكي وأنا نائم. وفي نومي كنت أزوم كحيوانٍ جريح.

3

أرادت أمي أن تجنِّبني نزول القبر وتوديع أبي هناك. لكن لم يكن من مفر. التُّربي سأل عن ابن الميت. وأقرباء لي ضغطوا على كتفي بإيماءة تضامن ودفع. فنزلت معه إلى القبر. ورأيتهم يغطونه بالتراب دون أن أشارك في هذا الطقس القاسي. كان أبي ملفوفًا في كَفَن أبيض. كطائر سقط في حفرة وليس بوسعه النهوض مجددًا. كطائر أصابته الرصاصة في القلب فظل ينزف بلا هوادة. وكنت أرى الدم يهرب من هذا القلب ليلوِّث الغطاء الأبيض. وكان الأبيض بالنسبة إليَّ لونًا يحتاج إلى لون. يحتاج إلى قليل من الأسود لمنحه معنى. يحتاج إلى كتابة بالحبر تدوِّن تاريخ صاحبه. حتى عندما يلقَى الملائكة فيسألونه لا يضطر للإجابة. سيجيبهم الكفن. من هنا فكرت في الكتابة. كنت أتمنى لو تكون على كفنه. ثم على كفني. ولصعوبة ذلك دوَّنتها على أوراق لتكون جوابًا أمام السائلين. ولأعفي نفسي من الكلام حتى لو استطعت. ثم عدتُ إلى البيت مع أمي وبرفقة دانيال. دانيال الذي لا يراه أحد غيري. لكنه موجود أكثر من أي أحد مرئي. كنت أجُر أربعة عشر عامًا ورائي. سنوات تبدو قليلة لكنها محمَّلة بالموت والدم. محمَّلة أيضًا بنظرات أمي اللائمة. حدَّ أني كنت أقرأ في عينيها ليس لومًا فحسب على ما فعلت إنما على كشف سري نفسه. كأنها تقول لي ما من داعٍ لتكشف

جريمتك. لكن أمي في الحقيقة لم توجِّه لي أي عتاب أو توبيخ. كانت تردد بأن كل شيء مكتوب. وأننا في النهاية لا يسعنا أن نصنع أقدارنا. وبين كلمات أبي القاسية عن صنع القدر. وكلمات أمي الناعمة عن الاستسلام للقدر. اخترت تلقائيًّا كلمات أمي لتكون فلسفتي في الحياة. فاخترت على الدوام ألا أنافس ولا أصارع على شيء. اخترت أن أستسلم للحياة لتدفعني إلى حيث تريد. أثناء ذلك رأت ماما في المنام أن المدرسة غارقة في الدماء وأنا أسير فيها. كانت العلامة واضحة. يجب أن نعزِّل من الحي وأغيِّر المدرسة. هكذا وصلت إلى الحي الذي أعيش فيه الآن. وأسكن الطابق السادس. وفيما أنا في شرفة هذه البناية أتطلع إلى الطابق الخامس في البناية المواجهة. وأراني. أراني أكتب وأرصُّ ورقةً فوق ورقة. ليس لأني كاتب وإنما لأني أفهم حين أكتب. ولأن الصور التي تلاحقني لا سبيل للتخلص منها إلا بكتابتها.

4

تبدو الحياة كطريقٍ طويلٍ مُترعٍ بلافتات تؤدي إلى شوارع خطأ.

الحقيقة أنه بالموت التأم ما بيني وبين أبي. التأم في المسافة التي خلقها الموت. مع خلق مساحة للتفكير أكبر من مساحة المحاكمة. الموت حدث في سن كنت أحاول فيها أن افهم ما حدث. واعود فيها إلى ذاتي التي هربت مني في غمضة عين. حينها انفتح تاريخ أبي أمامي. وبدأت أفكر فيه كرجل وُلِد مع ثورة يوليو. والتصق تاريخه بها. وفي سنوات التكوين اصطدم بنكسة 67. النكسة العامة تجسَّدت في نكسة أخرى شخصية: أطفال يموتون بعد الميلاد كأملٍ كاذب. سراب لا يروي لكنه يثير العطش. وفي عام 78 حين وُلِدت كانت الهزيمة تحيط به وتطوِّقه. وكنت أنا انتصاره الوحيد. بميلادي وحياتي بعد موت إخوتي منحته ذريعة للتخلِّي عن أحلامه. لأتجسَّد أنا كحُلْم له. حلم يجسد كل أحلامه المجهضة.

5

باستثناء بعض الأحلام والظهورات العابرة لم أَرَ أبي منذ رحيله. رغم أني انتظرته كثيرًا. في تلك الأيام عثرت بالصدفة عند بائع كتب قديمة على كتاب قديم ومتهالك. كتاب بعنوان "تحضير الأرواح". اشتريته وقررت تحضير روح أبي والتحدث معها. ظللت لليالٍ طويلة متواصلة بعد نوم أمي أضع مكتب المذاكرة في منتصف الغرفة. وعليه صورة كبيرة لأبي وشموع صغيرة مشتعلة. وأطفئ النور. أحدِّثه وأنا أنظر في عينيه في الصورة. وأكرر عباراتٍ هي تعاويذ لاستدعائه. وأضيف من عندي رجاءاتٍ أخرى هي كلمات سر بيني وبينه. وأغويه بأنه لو ظهر سأقبِّل يديه وأعتذر له وسأكون كما يريد.

وخلال ليالٍ طويلة كلما استحضرت أبي جاءني الشيخ. بالزي الأزهري. بنظارته السوداء. بعكاز الأعمى. ويقف على الحائط الأيمن بكامل هيئته. يقف كظل ويتكلم ويحرك عكَّازه. في الليالي الأولى كنت أفقد الوعي حين يتوقف قلبي من الخوف. وحين أُفيق أجد كل الشموع مُطفأة ونور الغرفة مفتوحًا. لم أكن أفهم لماذا يظهر الشيخ حين أستدعي أبي. لكن الفضول الممزوج بالخوف دفعني لأواصل لليالٍ كثيرة. كنت أريد أن أعرف ما يقوله الشيخ. والأمل أيضًا كان يدفعني لأواصل حتى أقابل أبي. لم يظهر أبي أبدًا. لكني سمعت ذات مرة ما يقوله الشيخ.

6

في البداية كان حاقدًا ويؤنِّبني لأني قتلت نفسًا بغير حق. قال إنه لم يكن يستحق القتل كعقاب. كان يستحق عقابًا نعم لكنه ليس القتل. ثم يبدأ في وصلة بكاء. ويخلع نظارته السوداء. لأرى لأول مرة عينين بيضاوين بياضًا صافيًا كالحليب. وبهاتين العينين البيضاوين قال لي ما كنت أهرب منه ولا أريد أن أذكره أبدًا. قال: أنت لم تنتقم لإبراهيم كما تقول. إنما انتقمت لنفسك. وقال: أنت مخطئ بنفس الدرجة حتى لو ادعيتَ الكمال. ثم صمتَ صمتًا طويلًا وترك لي مساحة لأتذكَّر ما فعله فيَّ. وبكائي الصامت. في هذه المرة على عكس مرات أولى شعرت فيها بالخوف وفقدت وعيي. كنت قويًّا جدًّا في مواجهته حدَّ أني كنت أقف بمواجهة ظله على الحائط. وأشير إليه بسبَّابتي. قلت له إنه خرب حياتي وقتل إبراهيم وإنه السبب في موت أبي. ثم انفجرت في البكاء وانهرت وأنا أتذكَّر كيف آلمني. وكيف كان شعوري بالذل حين قذف بداخلي. كنت أقف بكل قوة أمام الظل الذي يغطي الحائط بأكمله. وأقول كلمات كثيرة أطرده بها ليختفي.

7

حين نمت جاءني إبراهيم في الحلم غاضبًا. أمرني بنبرة قوية ألا أحضِّر روح أبي لأني في كل مرة سيأتيني الشيخ مكانه. فأبي لن يأتي لي أبدًا. لكني رغم أني أطيع إبراهيم فإني ظللت لليالٍ طويلة أستحضره. وفكرتُ ماذا لو أني كنت قلت لأبي من البداية الحقيقة كاملة. هل كان موقفه سيتغير. هل كان سيسعده أنه ربَّى رجلًا يعرف كيف ينتقم. أم أنه كان سيواصل في احتقاري. ليس فقط لأني هدمت حلمه إنما أيضًا لأني عجزت عن الدفاع عن نفسي.

8

أثناء ذلك كنت أنتبه إلى أن الندبة امتدت بعرض خدِّي الأيمن. باتت كأنها دليل صحراوي لمصيري. وعليَّ أن أسير في الخط الضيق المشرشر من أثر الخياطة. خط أفقي لا عمودي فلا أصل إلى شيء مهما فعلت. امتدت الندبة واستحالت بؤرة لندبات أخرى تفرعت عنها. أو جاءت من أماكن أخرى لتتمركز حولها. ندبة ظاهرة كانت دليلًا ناصعًا على ندبة أخرى بداخلي. أحاول دائمًا مداراتها ونسيانها والهرب منها. لكنها كانت تتعمَّق كلما تعمَّقت ندبة الخد الأيمن. وكانت ندبة الخد الأيمن تتعمَّق في كل مرة أعاني فيها من التجاهل. من نظرة استخفاف. من نظرة خوف. من تجنُّب الجميع لي كأني أحمل ڤيروسًا سينتقل إليهم لو اقتربت منهم. في تلك السنوات كان إبراهيم يدفعني للحياة بلا أمل. وكان دانيال يتطلع إليَّ من كل مكان. ويرافقني في الشارع والسينما. ونستمع معًا لرومانس لارجيتو كخلفية لليوم والأحداث. كنَّا ثلاثتنا ننتظر حدوث شيء لا نعرف ما هو. ربما يدًا تُخرجنا من البئر التي سقطت فيها. وربما مصيرًا يغيِّر المصير المرتقب لطفل قاتل ينتظر منه الجميع مزيدًا من الجرائم. في كل ذلك فقدت بوصلة الصواب والخطأ. حتى لو أقنعني إبراهيم بأني مُحقّ. حتى لو تأملني دانيال كأبٍ يرعى ابنه المخطئ. وفي لحظةٍ ما أدركت أني شبح يعيش مع أشباح. لا يرى إلَّا هُمْ ولا

يتحدث إلا معهم. وبيني وبين الواقع شُيِّد جدار لم يكن بوسعي هدمه. ولا صنع ثقب فيه لأعبر. فباتت أرضي الآمنة أرض الأحلام.

العصر الثالث

دانيال في الأرشيف

13

كانت ملفَّات قسم الاغتصاب وخاصة اغتصاب الأطفال كثيرة وتشغل مساحة ملفتة في الأرشيف وتغطي فترة زمنية طويلة على ما بدا لي وكانت الملفات الأولى ترجع للخمسينيات والستينيات من القرن الماضي وكنت أتصفَّح سريعًا ملفًّا وراء آخر بحسب الترتيب الزمني ثم الترتيب الأبجدي ولاحظت في صدر كل ملف صفحة تشير للميلاد والوفاة وهذا سهَّل عليَّ معرفة الأحياء منهم وعناوينهم المحدَّثة وإن كنت سألت نفسي في البداية عن فائدة ذلك وفكَّرت لحظتها أني لا أعرف بوضوح مثل أشياء كثيرة تبدو في البداية غامضة ثم ما تلبث أن تتضح ونعرف أهميتها ثم خططت للوصول للسنوات الحديثة إلى العقدين الأخيرين بالذات وقلت هذا ما أحتاج إلى قراءته وإبراهيم دلني وكان مرشدي فكانت إشارته رسمًا لمستقبلي ودفعني الفضول إلى أن أبحث عن ملف الشيخ وقلت لنفسي مستحيل أن يكون له ملف وإنه مجرد شيخ في مدرسة دينية بلا أثر وبلا تأثير فلا كان ينتظر منصبًا سياسيًّا ولا دينيًّا وصدق تخميني ولم أعثر له على أثر فقلت لنفسي سأعد له ملفًّا صغيرًا مختصرًا أحكي فيه للتاريخ ماذا كان يحدث في

مدرسة دينية من شيخ يعلِّم الأطفال تلاوة القرآن وتجويده وحفظه وكيف كان يومًا وراء يوم يتضاءل عدد الطلبة لأنهم كانوا يموتون تحت سيارات أو عربات مقطورة أو يُحوَّلون إلى مدارس أخرى فيحملون الشعور بالخزي بداخلهم من مكان إلى مكان ولأن الخزي مادة سائلة وسامَّة تظل تتجول بداخلنا وتمتزج بدمائنا فتجري في عروقنا في دورة كاملة من القلب إلى القلب حتى تُفسِد كلَ أعضائنا فتموت دون أن نموت ونظل نحمل السائل ونتحرك فيه ونبتسم به وننام به ونعمل به ونحن نعلم أن بداخلنا مقبرة للأعضاء وينتهي بنا المطاف في مصلحة الأرشيف نبحث عن هؤلاء الذين أفسدوا حياتنا لنقبض أرواحهم مرةً واحدةً ونحن على يقينٍ أننا رحمناهم لأننا قتلناهم مرة واحدة فيما مُتنا نحن بالتدريج وعلى مدى زمني طويل وشاهدنا بأعيننا موت أنفسنا جزءًا جزءًا وعضوًا عضوًا

وبعد شهر واحد من العمل في المصلحة أو أقل أو أكثر فأنا لا أعرف تقدير الزمن طلبت العمل لساعات إضافية من رقم صفر الذي رحب واعتبر ذلك اجتهادًا مني لأفهم أكثر طبيعة العمل وأنجز ما يمكن إنجازه وتذرَّعت بأن حياتي فارغة فلا أحد ينتظرني في البيت ولا في الشارع ولا في السينما ولا في المطعم وحددت لنفسي ضحيةً كل شهر أدرس ملفَّها جيدًا من الميلاد لمحل السكن للمنصب لتاريخ تأسيس الملف واكتشفت مع ضحيتي الأولى مَحاضِر شرطة مكتوبة بخط سيئ تعود إلى مايو 1987 ويناير 1990 وسبتمبر 1993 تقدَّم بها آباء أطفال أو أمهات قد انتهكهم وانتهى بها المطاف إلى الحفظ لعدم إثبات الاتهام وإثبات وجود الجاني في مكان آخر ومرفق كذلك شهادات من أشخاص ربما أصدقاء أو أقارب أو معارف متواطئين وضم نفس الملف صورًا شخصية وعائلية ومجموعة صور مع أفراد من السلطة لا أعرفهم لأني لا أعرف أحدًا من السلطة لكن يبدو عليهم النفوذ ونسخًا من خطابات بالبريد ومكالمات تليفونية مفرَّغة مع الإشارة إلى رقم الشريط في الأرشيف الصوتي ولفتتني صور له كشخصية عامة تظهر في التلفزيون وتملأ صفحات الجرائد مدوَّن وراءها تاريخ التقاطها في الثمانينيات والتسعينيات وصور من حوارات صحفية وصورة كبيرة مرفقة بالحوار ولفضولي ليس إلا

ذلك سمعت تسجيلات صوتية لا تدينه في هذه القضية مباشرةً وإن كنت قد فهمت شيفرة في النبرة والتلميح تشير إلى ما هو أبعد من البيدوفيليا إنما شبهة تجارة بالتأكيد لم تُثبت أو ثبتت لكن وقت فتح الملف لم يأتِ بعد مثل قضايا أخرى تكشفها التسجيلات لكنها لا تهمني في شيء ثم بعد جمع المعلومات جاءت الخطوة الأصعب وهي الاتصال به وإغراؤه بلقاء أو تهديده بلقاء والصعب هنا أن شخصيات بهذه المكانة أو تمتعوا بها ذات يوم حتى أصبح لهم ملف في مصلحة الأرشيف السري لن يقبلوا لقاءً بسهولة ولن يأتوا بمفردهم كما أنهم يدورون في دوائر مغلقة وأماكن يصعُب اختراقها

15

كما ننادي أنفسنا بأرقام في الأرشيف اخترت لضحاياي أن يكونوا أرقامًا كذلك والفائدة الإضافية أني أحصي عددهم وأجردهم من إنسانيتهم فمن الصعب أن نقتل إنسانًا قبل أن نجرِّده من هذه الصفة ومن المستحيل بالنسبة إليَّ أن أقتل من أتصوره أبًا أو زوجًا أو ابنًا ومن الأسهل أن يكون فردًا بلا اسم ولا ملامح مجرد رقم محض رقم بهذه الطريقة أفهم الفارق بين ضمير جندي قتل في معركة ورجل قتل زوجة أو حبيبة هكذا كان الضحية الأولى رقم 1 وعلى عكس ما توقعت استجاب سريعًا لخطاب أرسلته له بالبريد برغبتي في لقائه لتسليمه نسخة واحدة ووحيدة من ملف يهمه وحددت له موعدًا بالمكان والساعة دون أن أكشف عن هُويَّتي أو أترك له أي طريقة للاتصال بي وفي الموعد المحدد جاء بسيارة يقودها بنفسه وفيما يتطلع إلى جرائمه ويقيِّم الأوراق بين يديه ويهذي باتفاق بموجبه يُعدَم الملف للأبد في مقابل مكافأة مالية يتلقَّى طلقة واحدة ويُطلق صرخة لم تتجاوز زجاج السيارة المغلق يليها قطع عضو يستقر في فمه وأحمل ملفه وأودعه بنفس الشعور الذي تملَّكني يوم تركت الشيخ أمام المقطورة وبالرعشة نفسها التي نفضت قلبي وأنا أشاهد ارتطامه بالأرض

16

أختار لقاء ضحاياي صباح الجمعة وفي شوارع عمومية لأني أحب الصباحات وأحب الشوارع الواسعة في وقت هدوئها ولأن لا أحد يمكن أن يرتاب في رجلَين جالسَين في سيارة ولا في رجل يبدو نائمًا في كرسي سيارته وأتَّبع طقوسًا تمنحني السكينة بعدها مثل الصعود إلى البيت والاستحمام ليس للتطهر من الدم ولا ذنب القتل وإنما للتخلص من أثر الوجوه القبيحة على وجهي ثم أسحب صنَّارة صيد السمك وأقضي ساعات على الجسر الصغير الذي يربط ضفتين وأتأمل ماء النهر المتهادي والغماز على سطحه وأرى حركة السمك حول الطُّعم وأسمع معزوفة رومانس لارجيتو فتتسرب المزِّيكا إلى قلبي كالماء البارد وأشاهد أمامي شوبان وهو يعزفها على صفحة النهر وأقول لنفسي يا شوبان كَمْ أشبهك بوجهك النحيف وتسريحة شعرك وأقول لنفسي كل ما فى الحياة مزيكا بعضها يخلق الجمال وبعضها يتخلَّص من القبح ويا شوبان أعلم أني أموت في مثل عمرك القصير وأني سأودِّع العالم قبل الأربعين وسأخلّف ورائي شيئًا يُذكَر لن يكون مزيكا تمنح الشجن يسمعها العاشق في ليالي السهد ويسمعها القاتل بعد تنفيذ جريمته ويسمعها السائر فتلهيه عن التعب وإنما أرشيفًا وسجلًّا وتقريرًا عن زمن عشته لم أتطلع من خلاله أن أكون مقريزي زماني وإنما مجرد دانيال من ضمن دانيالات

متعددة تتنازع بداخلي

17

فوق الأرض مدينة يسير سكَّانها إلى مصير محتوم كأنهم قطارات تسير على قضيبين بلا التفاتٍ للوراء ولا قدرةٍ على تغيير القِبلة ظنًّا منهم أنهم اختاروا الطريق وأنه ممهد لهم

وتحت الأرض مدينة أخرى تشاهد المدينة العلوية وتضحك منها بسخرية

فوق الأرض مدينة سكَّانها الحقيقيون عرائس ماريونِتّ

وتحت الأرض مدينة هي مركز تحريك الخيوط فتجعلهم يرقصون ويتعاركون ويحبون ويكرهون ويتزوجون ويتناسلون

فوق الأرض مدينة يظن الناجحون فيها أنهم ناجحون وأذكياء وسعداء وأصحاب نفوذ ويظن الفاشلون أنهم فاشلون وأغبياء وتابعون

وتحت الأرض مدينة يحدِّد ساكنوها مَنِ الناجحون ومَنِ الفاشلون ومَنْ أصحاب السلطة ومَنِ التابعون في المدينة العلوية وأنا كدانيال انتقلت في غمضة عين من سكَّان المدينة العلوية إلى المدينة السفلية لأنهم اختاروني ولأنهم حين نظروا إلى جسدي لم يجدوا قلبًا ولا كبدًا ولا طِحَالًا ولا رئة تتنفس فعرفوا أن مكاني ليس بين الوحوش الظاهرة وإنما بين الوحوش المختبئة التي تلدغ من دون أن يراها أحد

وأنا جئت إلى هذه المدينة السفلية بمحض صدفة لكني لا أتطلع إلى أن أكون الرقم صفر بل ببساطة أن أكون دانيال وكدانيال أطهِّر المدينة العلوية من وحوشها ثم إني لاحظت زملائي وتأملتهم وراقبتهم لأعرف عنهم كما أظن أنهم يعرفون عني ويومًا وراء يوم اكتشفت أنهم أعدائي الحقيقيون وأن امتلاكهم لسلطة المعرفة والاطِّلاع على الخبايا لم يجعلهم آلهةً مُنزَّهين عن الخطأ ولا ملائكة يدوِّنون الحسنة والسيئة كما تفترض مهامهم الوظيفية وإنما هم أنفسهم مثلي تمامًا يحيكون الخطط من المدينة السفلية لينفذوها في المدينة العلوية رغم أن ثمَّة فارقًا بيننا أنهم يفعلون في المدينة العلوية ما أقتل أنا بسببه وأنهم يزيدون قبح المدينة العلوية بقبحهم ذاته دون أن يمس ذلك مهنيتهم ودون أن يبيعوا ملفًّا

عرفت عن خططهم السرية بمحض صدفة حين لمحتُ على مكتب الموظف رقم 21 رقم تليفون مدوَّنًا على ورقة بيضاء صغيرة بحجم إصبعين وبدا لي رقمًا مألوفًا فحفظته في ذاكرتي ورجعت لأرشيفي الشخصي وتأكدت أنه بالفعل لأحد الأشخاص الذين أخطط لتطهيرهم في الشهور المقبلة ورغم أنه محتمل أن يجمعهما ابتزازٌ ماليٌّ أو طلب خدمة فإن ما جمعهما كان تلاقيًا في الهوى ثم مع الأيام اكتشفت شيئًا فشيئًا أن كل موظفي الأرشيف يحملون نفس الميل للأطفال وأنهم شبكة محدودة لا أحد مُستثنًى منها إلا رقم صفر وأظن أنهم تحمَّسوا لاسمي ودعَّموني لأكون بينهم قبل مجيئي ظنًّا منهم بأني سأنضم إليهم بنظرية الضعيف الذي ينتقم من الضعفاء وهي نظرية كان يمكن أن تكون مقبولة لولا أن دم إبراهيم كان أمامي ولولا أن إبراهيم نفسه كان يرافقني في كل خطواتي حتى لا أدَّعي مثالية كاذبة وأقول إن طبيعتي الطيبة كانت ستبعدني عن الانتقام من أطفالٍ آخرين لأني حين أنظر إلى نفسي وأتأملها أعرف أن لي طبائع متعددة وبداخلي تمرح شخصيات متعددة منها إبراهيم ومنها دانيال الآخر وإن كنت أقول ذلك الآن فلأني واعٍ في هذه اللحظة لكن ذلك لا يعني أني دائمًا في حالة وعي كاملة ولا يعني ذلك أيضًا أن كون إبراهيم ودانيال الآخر خياليان أنهما ليسا واقعيين فوجودهما ما منحني الحياة

وكل ما يمنح الحياة موجود بالضرورة

19

في صباح السبت التالي لجريمتي الأولى ومن مكتبي في الأرشيف قرأت في الصفحة الأولى لإحدى الجرائد مانشيتًا رئيسيًا عن حادثة اغتيال تعرض لها أمس رقم 1 مع افتراضات كثيرة حول سبب القتل ومحاولة فك لغز العضو في الفم بافتراض أنها جريمة شرف لكن دون الوصول لأي شرف يكون وكيف يمكن أن تتورط شخصية عامة مثل القتيل في جريمة من هذا النوع مع فرضية عداء سياسي أو تصفية حسابات ثم سؤال أين كان حرَّاسه أثناء الحادثة ولسبب مجهول أصرت الجرائد على مرافقة الخبر بصورة القتيل من مسرح الحادثة رغم أنه كان بوسعهم إرفاق صورة أخرى كأنهم يودون تسجيل لحظة القتل لتكون عبرة ثم مع تكرار الحادثة بالطريقة نفسها واستبدال رقم 60 برقم 1 باتت النغمة السائدة عن سفَّاح واحد يصطاد شخصيات بعينها ليقتلهم بنفس التكنيك مع علامة استفهام كبرى عن سهولة تنفيذ الجريمة وفي يوم ثابت وشوارع عمومية والأغرب من ذلك أن القتلى الجُدُد لم يتعلَّموا شيئًا من حوادث القتل السابقة عليهم كأن ما يتمتعون به من ثقة يمنعهم حتى عن التفكير في احتمالية كونهم ضحايا جُددًا ثم إنَّ كل ذلك يحدث في المدينة نفسها مع ذلك تجاهلتْ هذه الصحف روابط تجمع القتلى ولم يتحرَّ أحد عن سجلهم السري أو تحرَّوا وعرفوا وتجاهلوا ذكر المعلومة لمنع

البلبلة والحفاظ على مشاعر عائلة القتيل وفي ذلك لمحة نُبل لكنها في غير محلها

20

اللافت هنا هو الصمت التام الذي غلَّف مصلحة الأرشيف السري والعمل بمهنية مذهلة إذ بطريقة ميكانيكية يقصُّون الأخبار ويُرفقونها بملف القتيل ويعلِّمون عليه علامة إكس بالأحمر للدلالة على أنه ملف مغلق للأبد وهي نوعية ملفات لا نتخلص منها لكنها تظل في الظل كشبح يمكن استدعاؤه في لحظة مستقبلية شبح يشبهني تمامًا كما يشبه سكَّان المدينة السفلية وخلال ذلك لم تهرب كلمة من فمِ زميلٍ ولا تعليق ولا نظرة خاطفة وكان ذلك مثيرًا للريبة إذ أعرف أن الأرشيف بالكامل مُراقَب بكاميرات ولا بد أن الرقم صفر يعرف تحركاتي ويرتاب في اقترابي المستمر من ركن الملفات الجنسية حتى لو كنت المسئول عنه ويمكنه بدَوْسة زِرّ أن يراجع أي ساعة ليعرف ماذا كنت أفعل في الساعات الإضافية حين أنفرد بالطابق السفلي وهو انشغال انتبهت له في البداية ثم سلمت بانه لا دليل يُدينني ثم إنه لو يعرف ما كان صمت ولو يعرف وصمت على المرات الأولى فسيصمت للأبد وكان رهاني على الصمت مطوَّقًا برغبة سرية بأن يكتشفوا الجاني لأعلن أسباب الجريمة وأتحرر من سِرٍّ هو سِرُّ حياتي لكنه أيضًا سر حياة كثيرين مثلي ممن لم تُتَحْ لهم فرصة الانتقام أو حتى الكلام ورغم أن ذلك يخالف طبيعتي التي تنحو إلى الداخل فإن الرغبة في الصراخ كانت تأتيني من آنٍ لآخر بعد أن أقع فريسةً

لنوبةِ قلقٍ قاتلة

21

في عام 2007 توسَّع الأرشيف بعد وصول وسائل التواصل ومضاعفة العمل لكن الزملاء الجدد لأسباب لا أعرف إن كنت فهمتها شغلوا بناية أخرى تحت الأرض يفصل بيننا وبينهم باب وغير خاضعين لإدارة الرقم صفر غير أن بوسعهم العبور إلى قسمنا والتزوُّد بالملفات التي يحتاجون إليها وكان تفسيري الوحيد أن القسم الجديد أكثر تخصصًا في التكنولوچيا الجديدة ولديهم القدرة على متابعتها وأَرْشَفة المنشورات وكتابة هوامش تخصُّ سياقها لتتضح خلفيتها وهم بذلك يتفوقون على زملاء قسمي الذين لأسباب تخص الزمن والطموح ظلوا في مكانهم الآمن حتى لو تطوروا قليلًا وكنت أنا لحُسن الطالع حلقة بين الاثنين لعامل السن من ناحية والفضول من ناحية أخرى وبفضول وحتى لا أبقى خارج الزمن وفي الوقت نفسه بحثًا عن وسائل أخرى للمعرفة اقتربت منهم وفهمت طريقة عملهم واستغربت جدًّا من قدرة الناس على الحكي وكتابة منشورات تخص حياتهم أمام أناسٍ لا يعرفونهم ولا يعرفون ما أغراض وجودهم في قائمة أصدقائهم ولفتني وجود شخصيات عامة ومشاهير من بين مستخدمي فيسبوك وتويتر وعرضهم لصورهم الشخصية والعائلية وتحديد أماكن انتقالهم وسفرهم كأنهم يُوشُون بأنفسهم فبدأت من تلك الفترة أتتبَّع الضحايا وأعرف عنهم ما لم أعرفه من

ملفاتهم

لست متأكدًا إن كان زملاء القسم الجديد قد خضعوا لقسوة الاختبار مثلي ولا إن كانوا قد أتوا عبر رجال الثقة لكن المؤكد أنهم أذكى مني وأكثر حرصًا على المكان وبالتأكيد كانوا يؤمنون بالدور الوطني الذي يؤدونه بطريقةٍ ما يمكن أن أصف الوضع بأننا تحولنا إلى قبيلة شيخها في مكان آخر ولا شيء يربط أحدنا بالآخر إلا السر بين كل فرد فينا والسر الذي يجمعنا جميعًا والسر الذي خلق فيما بيننا تواطؤًا ونظرات تحمل ابتسامة وتحمل تقديرًا وتحية باليد مع القبض عليها في مودَّة بكلمات مختصرة بيننا كلام قليل واحترام كثير وكنت على أية حال من الموظفين المميزين الذين يتلقون المواد من الجهة السرية وألتقي بحامل هذه المواد بعد سنوات من الخبرة والثقة وأصبحت همزة الوصل بين الأرشيف القديم والأرشيف الجديد كجسر يربط بين ضفتين

العصر الثاني

دانيال قبل الوصول إلى الأرشيف

9

في 6 أبريل عام 1998 يوم ميلادي العشرين ماتت أمي. ماتت بهذه السهولة التي كتبت بها العبارة. هكذا بكل ببساطة: فقدت شهيتها للطعام ليومين واكتفت بشرب الماء. لم تكن تشكو من مرض ظاهر. لكنها كانت غائبة عن العالم وتتذكر أبي وتحدِّثه. ثم جاء اليوم الذي عادت فيه إلى العالم وقالت أريد أن أنام. فعرفت أنها لن تستيقظ. كان ملاك الموت يقترب ليأخذ روحها في سلام. وكنت أنا متكئًا على الأريكة أبكي أمام التلفزيون. كنت أشم رائحة الموت المغبَّرة. وأتلقاها باستسلام من يعرف أن كل شيء مكتوب. وأن القدَر لا يمكن لأحد أن يغيِّره. لم تمرَّ نصف ساعة حتى دخلت إليها. كانت نائمة على ظهرها ومغطاة بكاملها بملاءة خفيفة وبيضاء. حين رفعت الملاءة كنت أعرف أن ملاك الموت أنهى مهمته. وأنها ودَّعت الحياة بعينين مغمضتين. كان وجهها أبيض مُشرَّبًا بالحمرة. كان مضيئًا كبَتُول. وكان جسدها ميتًا بأنفاس غائبة.

قبَّلت جبينها ولم أكن في حاجة إلى طبيب العائلة ليؤكد وفاتها. إنما إلى طبيب الصحة ليكتب تقريره لأستخرج

شهادة الوفاة. وحين انتهى غسَّلتها أنا بنفسي. لففتُ جسدها النحيف في كفن أبيض وجهَّزتها للدفن. ورغم أن العادة أن يُدفن الميت بالنهار أحببت أن تنام أمي في قبرها. أن تستريح لتبدأ حياتها الأخرى بداية من اليوم نفسه دون تأجيل. كنت أفكر حينها أن إكرام الميت دفنه. دون أن أجزم بداخلي إن كان التعجيل بالدفن لتكريم أمي أم للتخلص منها. أفكر الآن كَمْ شيء ميت في حياتي ينبغي دفنه من دون أن أدفنه. بموت أمي انقطعت صلتي بالأحياء. انقطع الخيط الأخير الذي ربطني بهذا العالم.

عدت من الدفن بصحبة إبراهيم وبرعاية دانيال. قلت لنفسي لن أبات الليلة في البيت نفسه. فنزلت في أحد البنسيونات. من السرير وعبر نافذة كنت أبصر بيتنا. أفكر أنه كان بيت رجل وامرأة حلما بتشييد حياة هادئة. وحلما بطفل. ثم أنجب الرجل والمرأة طفلًا رأياه جميلًا. وظلَّا يتابعانه يومًا وراء يوم. يشيِّدان حوله حلمًا ويفرحان مع كل كلمة جديدة ينطق بها. حاول الرجل والمرأة أن ينجبا طفلًا آخر وأخًا للابن. لكن الإرادة الإلهية لم تشأ. كما كانت المرأة تقول. كانت حياتهم بالفعل سعيدة وهادئة. شابان معهما طفل. يلعبان به ويُسعدهما. وطفل معه أبٌ وأمٌّ يحبانه ويدلِّلانه. الرجل والمرأة كانا موظفين. في الصباح يستيقظان للذهاب إلى العمل. ويتركان الولد عند مدرسته حتى اعتاد الذهاب بمفرده. لكن الحياة لم تكن بهذه

البساطة. والقدَر المكتوب سلفًا كان ينظر للقصة باعتبارها مملَّة. تحتاج إلى بعض الدراما. لكن الدراما كانت أكبر من طاقة البشر. فمات الرجل ثم ماتت المرأة. وجلس الطفل الآن. بلسانٍ شبه مبتور ونُدْبة على الخد الأيمن. يتطلع من فندق يحرس الأشباح ويبكي. يبكي كطفل.

10

قضيت ساعاتٍ كثيرةً على كنبة أمي منذ رحيلها. وشاهدت بالنيابة عنها آلاف الأفلام العربية والأجنبية المعروضة بالتلفزيون. قلتُ تعليقات على الأبطال كنت أسمعها منها وأنا في المطبخ أو وأنا أعبر بالصالة. وحضَّرت المشروبات التي كانت تحبها وهي تشاهد فيلمًا في المساء أو مسلسل السابعة مساءً. ضحَّكتني الأفلام التي كانت تضحكها. وكنت أقول لدانيال إني أعيد اكتشاف أمي بعد رحيلها. كانت الكنبة لا تزال دافئة. ولا تزال تتخذ شكل جسدها. وفي الصباح كان الراديو تسليتي الكبرى. أسمع كل برامجه من الصباح وحتى منتصف الظهيرة. وفي المساء كنت أتطلع من النافذة إلى دانيال.

العصر الرابع

الأيام الأخيرة في حياة دانيال

14

النوافذ التي كانت تُفتَح على ميدان في منتصفه نافورة غدت تفتح على مقبرة جماعية والأربعون جسدًا الذين فارقوا الحياة غَدُوا دُمًى تطفو على سطح الماء دمى عارية كأنها وُلِدت في اللحظة من ماء مستنقع وبجوار الدُّمَى ثياب تطفو كأنها ألواح نجاة لم يلتفت لها الغرقى ولم يكن من بين هذه التمثيلات جسد دانيال لأن دانيال يجلس الآن في النافذة ويراقب المدينة بعد خرابها وحين أشرق الصباح بنور كان نورًا زائلًا مصيره الانطفاء مع غروب الشمس ومع الصباح تحوَّل سكان الحي في شرفاتهم إلى عرائس ماريونت بأفواه مفتوحة تنظر إلى دُمى راقدة على ظهورها

أطلقت دُمْيَة أربعينية معلَّقة بخيط غير مرئي في سقف الشرفة صرخةً مدوية واهتزت يمينًا ويسارًا فخبطت دُمْيَة رجل في بداية الستينات بدأ يصيح في هيستيريا والهيستيريا انتشرت كالنار في الشرفات المواجهة والمجاورة وغدت تردد كلمات غير مفهومة ولم يكن ممكنًا حتى لو خطر ببال أحد أن يُهاتفوا النجدة أو الإسعاف إذ بانقطاع الكهرباء وانقطاع الاتصالات اختفت قوات الحماية

المدنية وأصبحت المدينة متروكة لمصيرٍ مجهول

حينها اقترحت دُمْيَة خمسينية لرجل أن يدفنوا موتاهم واقترحت أخرى أن يبلِّغوا الشرطة حتى لا يتعرضوا لمساءلة قانونية لو عادت الحياة وكان هذا رأيًا حكيمًا ومثاليًّا لكنه منقطع الصلة عن الواقع أما الأغلبية فاتفقت على دفن الموتى من دون تصريح دفن وأن يكرِّموا الموتى في هذه الساعة

ثمة دُمْيَة بكت وثمة دُمْيَة صرخت وثمة دُمْيَة نزلت من البيت وتوجهت إلى دائرة الميدان وكانت الخطوة الأولى صرف المياه التي استحالت عفنًا ثم حفر الأرض الطينية بعمق نصف متر فاجتمعت الدُّمَى في الشارع وكان عددها يتجاوز المائتين فنزحوا مياه الأمطار في جرادل أو صرفوها في أقرب بالوعة وسهَّلت الأرض الطينية عمل الحفر فبدؤوا رُويدًا رويدًا في نقل جثة وراء أخرى

لقد استغرق العمل نهارًا كاملًا انتهوا فيه من الحفر والدفن وتغطية الحُفر ووضع حجر فوق كل قبر لتمييز أنه قبر ثم طوَّقوا الميدان من جهاته الأربع بأحجار قليلة لتمييز أنها جبَّانة وحين حلَّ الغروب راحت دُمْيَة وراء أخرى تنسحب واختفت الدُّمَى ليلةً كاملةً فيما أنا في النافذة الخلفية أراقب شكل الميدان المعتم والمضاء بنور القمر الخافت وأكمِل من وراء ستار ما تبقَّى من أرشيفي الشخصي وأستمع لمعزوفة رومانس لارجيتو

15

في الصباح التالي كانت أجساد موظفي الأرشيف الأربعين مطبوعة على الأرض التي جفَّت تمامًا حتى بدت كمنحوتات بارزة في الأرض وحول الميدان وأمام السيارات التي تحولت إلى خُرْدَة رقدت جثث القتلى مُطوِّقةً الميدان وفي العاشرة تقريبًا ظهرت دُمى من قوات الشرطة لا بد أنها تلقت بلاغًا عن الحادثة فجاءت في صفوف على رأسها دُمْيَة أكبر أعطت أمرًا بإطلاق سارينة أرعبت الدُّمَى النائمة في بيوتها وحين تطلَّعوا من الشرفات شاهدوا الدُّمَى الشرطية تشير لهم بالنزول للاستماع إلى أقوالهم لكن ولا دُمْيَة واحدة استجابت هذه المرة لأول مرة في التاريخ ولأن الشرطة فقدت قوتها ولم يعُد لديها ما تردع به الدُّمَى الأخرى انصرفت في صمتٍ مع كلماتٍ مبهمةٍ لرئيسها وإيماءة فليَكُن ما يكون

16

الحياة لا تموت حتى لو توقفت قليلًا فبعد أربعين يومًا من التجمُّد أو خمسين أو مائة لا أعرف فأنا لا أعرف تقدير الزمن قررت الدُّمَى أن تنزل إلى الشارع وترفع لافتات ثورية تطالب فيها بعودة النور والاتصالات ورغم أن المسيطرين على المدينة العلوية قد صاروا دمى فإن المسيطرين على المدينة السفلية التي كنت أنتمي إليها ذات يوم لا يزالون بقوتهم إذ لم تنقطع عنهم الاتصالات ولا انقطع عنهم النور ورغم أن موظفي الأرشيف الأربعين قد قُتِلوا بعد أن وشيتُ بجرائمهم فإن ذلك لم يكن يعني اختفاء المدينة السفلية فالجهات السرية لا تزال تعمل وهي من أدارت ملف الظلام منذ بدايته والآن هي من تعيد النور وتدير الاتصالات لكن بطريقة مبتكرة وخلال الأيام الأربعين استحدثت السلطة تكنيكًا من خلاله يُهاتف الرجل زوجته فلا يسمع إلا صدى صوته وتهاتف الزوجة زوجها فلا تسمع إلا صدى صوتها وهكذا الأب حين يهاتف الابن والصديق حين يهاتف صديقه وبررت الجهات السرية في منشور سري وصلتني نسخة منه باعتباري فردًا منها حتى لو كنت مختفيًا أن الاستقطاب بين أفراد المجتمع أدى إلى التناحر من هنا لزم ألَّا يسمع أحد صوت أحد وإنما يسمع صوته نفسه

كنموذج لظاهرة رد صدَى الصوت يتحدَّث رجل مع صديق فيقول ما يلي ويسمعه:

- قررت أن أهاجر ما رأيك لو تأتي معي

- قررت أن أهاجر ما رأيك لو تأتي معي

- موافق طبعًا أنا من أقترح عليك

- موافق طبعًا أنا من أقترح عليك

- أنا وأنت واحد المهم أن نجهز أوراقنا

- أنا وأنت واحد المهم أن نجهز أوراقنا

- أفكر في الهجرة عن طريق مَرْكَب في البحر ما رأيك

- أفكر في الهجرة عن طريق مركب في البحر ما رأيك

- موافق طبعًا أنا من اقترحت عليك الفكرة

18

عدوى سماع صدى الصوت اكتشفتها الدُّمَى بعد شهور أو سنوات فأنا لا أعرف تقدير الزمن أو اكتشفوا الأمر مبكرًا عن ذلك لكنهم استمتعوا بها لأنها منحتهم سعادة جمَّة وانتقلت الظاهرة إلى حوارات الدُّمَى في الواقع نفسه فصار الرجل يقول عبارة مثل "الجو برد" في عز الحر فيرد الآخر: "برد جدًّا" وتقول امرأة: "عمل المرأة مضاعفة لعمل المرأة" فترد أخرى: "عمل المرأة تعب على المرأة" ويقول شابٌّ: "هذا البلد أفضل من غيره" فيرد شابٌّ: "البلاد الأخرى ليست بجمال هذا البلد" ولو قال شخص إن الشمس تشرق من الغرب لرد عليه آخر أن الشمس لا تشرق من الشرق هكذا غدت التقنية أكثر عمقًا حين كررت نفس المعنى ولو اختلفت الألفاظ فالدُّمَى أيضًا تحب تطوير نفسها ولو كان مصيرها أن تركب قطارًا إلى قِبْلةٍ لا تعرفها فعلى الأقل يحقُّ لها أن تنظر من النافذة

وبمناسبة القطار كان رجل يسأل امرأة إلى أين يتجه القطار فلا تجيب لأنها لا تعرف إلى أين يريد الرجل أن يتجه القطار فيصيغ الرجل السؤال بصيغة أخرى هل القطار يتجه إلى المدينة الساحلية فتقول المرأة: القطار يتجه إلى المدينة الساحلية حتى لو لم يكن يتجه إلى هذه القبلة لأن هذه هي الإجابة الوحيدة التي تطمئن الرجل بل وبات معتادًا أن يقول شخص: الطب لا يشفي فيرد آخر: الشفاء في

المرض أو أن يقول بائع: بضاعتي تمنح الأبدية فيشتري منه المشتري ويقول له أشتري منك لأن بضاعتك تمنح الأبدية

ومع عودة الكهرباء بعد شهور أو سنين عاد التلفزيون إلى عمله فباتت كل البرامج تقول الشيء نفسه والدُّمَى تردد ما يُقال كحقيقة مطلقة هكذا اختفى الخلاف بين الدُّمَى واختفى الصراع تمامًا وعاش الجميع في سلام وأمان واطمئنان وسكينة

20

الرواية التي بدأت قراءتها منذ ليلة حادثة قتل الأربعين رجلًا لا تزال مفتوحة لم أنْتهِ منها بعدُ وإن كان الشغف يدفعني لأعرف ماذا فعلت المرأة التي اختفى زوجها أو هرب هكذا في هذا الليل وهذا الصمت فأمدُّ إليها يدي وألتقطها من فوق المنضدة وأقرأ ما يلي:

"في اليوم الثالث لاختفاء زوجي شعرت، على عكس ما توقعت، ببراحٍ في البيت. عثرت في كل ركن فيه على ذاتي التي اختفت وراء ظله. منذ سنوات كنت أشعر بأن جسدي يتضاءل، حدَّ أني ذات مرة رأيتُني في المرآة بنفس جسدي وأنا ابنة العاشرة. كنت بوجه بريء جدًّا وضفيرتين ولم يكن صدري قد نبت بعد. وخلال سنوات زواجي كنت أفقد شيئًا كل يوم. أحيانًا أفقد كيلوجرامًا، وأحيانًا أفقد عينًا، واكتشفت ذات صباح أني فقدت قلبي. ليس مجازًا، إنما حقيقة. حينها كنت أسمع النبضات في كعب قدمي من دون أن يكون مصدرها الأصلي في الصدر".

"سعادتي باختفاء زوجي، وتوقُّعي لموته، لم تستمرَّ طويلًا. فقبل مرور الشهر الثالث تلقيت طردًا بريديًّا ظننته في البداية طلبًا كان طلبه هو وتأخر في وصوله، أو طردًا جاء بالخطأ. لكني حين فتحته وجدت ملفًّا مكتوبًا عليه سِرِّي للغاية. حين جلست لأقرأه أصابني الذهول. كان

الملف يحكي بالتاريخ والدليل الجرائم التي ارتكبها زوجي حين كان يعمل موظفًا بالأرشيف المركزي. وبالإضافة إلى الجرائم، كان يسرد قصة حياته كاملة مقسَّمةً إلى عصور، بداية من العصر الأول للرابع، مرورًا بطفولته ومراهقته وبداية عمله بالأرشيف، بل وحتى بعد اختفائه. وفي آخر الملف توقيع بخط الرُّقْعَة: دانيال".

حين نزلت إلى الشارع بعد شهور أو سنين من الحبس في البيت لم أتعرَّف على الشوارع ولا الناس ولا فهمت إيقاع المدينة إذ كانت الشوارع ملأى بدُمى ترتدي ملابس خضراء ومُصغَّرات من دبابات ومدافع وفي الشرفات كانت دمى أخرى تتطلع إلى الشارع وبعض الدُّمَى تدخن سيجارة أو تشرب قهوة أو شايًا ورأيت دُمْيَة كانت تنشر الغسيل بيد وباليد الأخرى تمسك دُمْيَة رضيعة وبجوارها دُمْيَة رجل يتكلم في التليفون وعلى الناصية كان السوبرماركت مزدحمًا بدمى في صفوف لتشتري احتياجاتها ووقف باعة من الدُّمَى يناولون الزبائن أشياءهم أو يحاسبونهم ورغم أن الأمطار قد جفت وجاء الربيع ورغم أن الأرض كانت أسفلتية فإني شعرت كأني أسير في بحر أو محمَّلٌ بأكياس رملية وحين وصلت إلى شارعٍ رئيسي رأيت أُوتوبيسات تقودها دُمْيَة لها شارب وتركبها دمى من الرجال والنساء وعلى كوبري الجلاء شاهدت دُمْيَة رجل تمسك بيد دُمْيَة فتاة وبدا أنهما يتحدثان في الحب والولَه فاقترب منهما دُمْيَة خضراء وعنَّف الولد والفتاة وبدا أنه يسبُّهما كأنهما خرجا عن أعراف الدُّمَى التي تأسست في غيابي وفيما كنت أسير انتبهت إلى أن الدُّمَى تنظر إليَّ ككائن غريب أو حيوان جاء من الغابة واخترق المدينة وحين ركزت في عيون الدُّمَى لاحظت أنها زجاجية وتخيلت أنها لا ترى وإن كانت

تنظر وعلى سور دار الأوبرا وحديقة الحرية رأيت ملصقاتٍ تمردية مشطوبًا عليها ورسوم جرافيتي شوَّهتها بُويَة سوداء وعند مطلع كوبري قصر النيل أوقفتني دُمْيَة خضراء أخرى وسألني عن بطاقة الهُويَّة وحين قرأ البيانات حيَّاني واعتذر وبرَّر ذلك بأن الأمن يجب أن يستتبَّ كما تعرف يا باشا وأومأت برأسي بالتأكيد وأضفت تأكيدًا آخر بأن الأمن بالفعل مستتب وأنه ما من أمن يمكن أن يستتب أكثر من ذلك فابتسمتِ الدُمْيَة وابتسمتُ أنا

لم يكن المدير رقم صفر دُمْيَة وحين خطوت خطوات داخل الأرشيف حدَّقت في الموظفين واحدًا واحدًا ولم يكن أيٌّ منهم دُمْيَة وكانوا جميعًا بأحجامهم الطبيعية كبشر وكانوا يشغلون المكاتب بثقة ويجلسون أمام أجهزة الكمبيوتر بتركيز وكانوا شبابًا في العشرينات سمانًا بعض الشيء ومكرَّشين وبعيون مدوّرة ونظارات نظر وكانوا جميعًا قد خرجوا من نفس القالب وبنفس الصبَّة وبدا لي أن الأرشيف يعمل الآن بطريقة مختلفة أكثر تطورًا وفكرت أنهم لا بد من قسم الأرشفة الحديثة الذي تعلَّمت منه مراقبة وسائل التواصل وأرشفة موادِّها وساعدني في الوصول لضحاياي السابقين وحين اقتربت من مكتبي وجدت دانيالاً هزيلًا يشبه شوبان بشعر ناعم ووجه نحيف وندبة في الخد الأيمن ويرتدي نظارة تنظر من ورائها عينان زائغتان مثل عينَيْ تمثال الروح الذي شاهدته في المتحف المصري حين كنت صغيرًا وقالت أمي حينها إن الروح تشبه الجسد لكن المصري القديم ميَّزها بوضع ذراعين فوق الرأس وكنت أريد أن أختبر صوت دانيال فقلت مساء الخير فقال مساء الخير قلت اسمي دانيال قال اسمي دانيال قلت أنا موظف في الأرشيف منذ زمن قال أنا موظف في الأرشيف منذ زمن قلت له هل أصابتك لعنة صدى الصوت قال اللعنات لا تصل إلى هنا لأن هنا تُصنع اللعنات قلت له هل تعرف

إبراهيم قال أعرف إبراهيم قلت له هل تعرف شوبان قال أعرف شوبان قلت له هل تعرف معزوفة رومانس لارجيتو قال أعرف معزوفة رومانس لارجيتو سألته إن كان يسمح لي بأن أعانقه فنهض وعانقني وهمس في أذني بأنه يعرف أيضًا فيلم سليبرز وأنه يعرف الطريق الترابي وأنه يعرف الشيخ والمقطورة وأنه يعرف الطفل الذي ركض وأنه هو نفسه مَنْ كان ينتظره على الرصيف الآخر وعاد معه إلى البيت

25

قلت لدانيال: أريد التجوُّل في الطابق السفلي أريد أن أعرف كيف حال الأرشيف وأراجع بعض ملفاته فتقدمني بخطوة وهبط معي درجات السلم ولاحظت التوسع الكبير في الأرشيف وعبر مرآة في منتصف الممر الرئيسي ملتصقة برفوف خشبية مستديرة يعلوها زجاج وتضم ملفات مهمة ومفردة رأيت رجلًا بشعر أبيض وجسد أكثر نحافة وعينين عسليتين زائغتين وحين صُعِقت دققت النظر فيه فرأيت وراء الشيب والوجه المتغضن وجه طفل في العاشرة له ندبة تشق خده الأيمن يقف ذليلًا أمام أبٍ يجافيه ويتسول نظرةً منه لن ينالها طيلة حياته وشدني دانيال من يدي بلطفٍ ورِقة فرفعت نظري ودارت عيناي بالأرشيف مصعوقًا من اللون الأحمر الذي سيطر على هذا الطابق وخطوت خطواتٍ بطيئة لأقترب من تضخُّم الملفات الجنسية وخفق قلبي حتى كاد يقف إذ الطابق السفلي كان مخصصًا باكمله تقريبًا لهذه الملفات ولا بد أن أغلبها يخصُّ الأطفال قلت لنفسي ثمة أشياء مثل البحر كلما أخذت منها زادت ونظرت إلى دانيال فرأيت عينين زائغتين أكثر انطفاءً ورأيت غمامةً

26

قبل اختفائي الذي يبدو أنه استمر لسنوات فأنا لا أعرف تقدير الزمن إذ شَابَ شعري وضَعُف جسدي وظهرت حدبةٌ صغيرة بظهري كنت قد قتلت 109 أشخاص بإصرار وترصُّد وبنفس التكنيك على مدار عشر سنوات ومن دون توقف إلا لظروف طارئة ليس من بينها المرض ولا الندم وإنما صعوبة العثور على الضحية لسفر أو لتغيير عنوان أو لموت وداخل هذا الأرشيف وبالطابق السفلي حيث أسير بصحبة دانيال اقتربت من الأرفف لأراجع ملفَّات الذين قتلتهم واستقرَّت جثثهم في التراب وكنت أريد لسببٍ غامض واستجابةً لوسواسٍ ما من طريقة للتخلص منه سوى بالاستجابة له واتِّباعه أن أطَّلِع على ملفاتهم ومراجعة تواريخ وفاتهم

27

كل الذين قتلتهم أحياء

فقتُ من الإغماء بعد دقيقة أو ساعة لا أعرف فأنا لا أعرف تقدير الزمن وبحثتُ بعينَيَّ عن دانيال فلم أجده حولي فنهضتُ شبه دائخ أتكئ على ذراعي اليُسرى وألملم عدة دفاتر كانت في يدي وسقطتْ مع سقوطي وقرأت في صفحة أولى تاريخ ميلاد الضحية المفترضة دون تاريخ وفاتها وفتحت الملف وقلَّبت صفحاته لأرى جرائم أخرى جديدة أُضيفت في السنوات الأخيرة خلال فترة اختفائي رغم أني قتلتها قبل ذلك بسنوات طويلة وكان الملف مطعَّمًا ببوستات جديدة من تويتر وفيسبوك وصورٍ حديثة التُقطت في كومبَوندات وأحياء شُيِّدت من وراء ظهري فلا أعرف أماكنها ولا متى ظهرت وظللت أنتقل من ملفٍّ إلى ملفٍّ وأنا أراجع الأسماء التي كان يجب أن تفارق الحياة فلم تفارقها

جلست إلى المنضدة الطويلة وفرشت مجموعة ملفات كنت أنا نفسي من جهَّزتها وقلَّبت صفحاتها مجددًا على أمل ولو كاذب بأن ما أعيشه الآن مجرد كابوس لا بد سأستيقظ منه لكني لم أستيقظ ولم يكن كابوسًا ففتحت حقيبتي وفتحت أرشيفي لأتأكد من وجودي ذاته فوجدتني هناك أحكي عن عصوري وعن ضحاياي وعن جلَّاديَّ وعن مدينتي فبكيت كما بكيت يوم تُهت من أمي في سوقٍ مكتظةٍ بمئات الغرباء وظللت أركض وأركض وأنا أناديها فلم تسمعني ولم أعثر عليها وحينها بكيت بكيت جدًّا ليس لأن أمي ضاعت مني وإنما لأني بضياعها تُهتُ عن ذاتي فلم أعرفها كما أنا تائه الآن عن ذاتي ولا أعرفها وفي غمرة بكائي جاءني دانيال وكنت جالسًا على درجات سلم بيت لا أعرفه وكنت أدسُّ رأسي بين ذراعين فربَّت على رأسي وسألني لماذا تبكي فقلت له لأن إبراهيم مات وفي هذا اليوم وُلِد إبراهيم في ذهني وفي هذا اليوم وُلِد دانيال وصار صديقي الذي لا يفارقني حتى لو تمرَّد أحيانًا وفارقني

وفيما كنت في بكاءٍ وشرود دخل دانيال وقال لي يا دانيال أنت مرهق جدًّا لماذا لا ترحل قلت له جئت فقط لأترك ملفي هنا لأن هنا أأمن مكان في العالم قال لي لا يا دانيال أنت لا تعرف ما حدث يا دانيال هنا ليس أأمن مكان كما تظن ولا بد أنك لاحظت في الشارع الدُّمَى الخضراء قلت له انصحني يا دانيال فلا بد أنك تعرف أكثر مني قال احفظ أرشيفك في بيتك فبيتُك الآن أكثر أمنًا من هنا ومن كل الأماكن الأخرى

حملت حقيبتي على كتفي وصعدت درجات السلم ومررت من أمام مكتبي فودَّعت دانيال وودَّعني بابتسامةِ تضامُن وسرت بالممر الرئيسي وألقيت نظرةً أخيرة على زملائي الأربعين الذين ودَّعوني بنظرة ساخرة وكان من بينهم الشاب الذي كان ثلاثينيًّا واستقبلني للمرة الأولى يوم جئت إلى الأرشيف وكان أكثرهم سخريةً مني وحين بلغت بداية الممر وقفت أمام الرقم صفر وكان غارقًا في قراءة جريدة فرفع رأسه قليلًا ونظر إليَّ بسخرية أيضًا ثم نهض ومدَّ لي يدًا وشدَّ على يدي فلاحظت كيف صار عجوزًا كأنه اختزن عمر الكون بداخله وسألته قبل أن أرحل ماذا حدث ولماذا لم تُسجَّل تواريخ الوفاة على ملفات الموتى

خرجت من الأرشيف وسرت في الشارع كمحارب مهزوم يجرُّ وراءه مئات الجنود الذين تسبَّب في قتلهم حين ظن أن بوسعه أن ينتصر بسلاح بدائي على الطيارات الحديثة والأسلحة الفتَّاكة وإن كان لهذا المحارب أن يفتخر بشيء فليس إلا بقاؤه في قيد الحياة ونجاته من كل الرصاصات التي توجهت له وإن كان لهذا المحارب أن يشعر بالخزي من شيء سيكون بقاءه على وجه الحياة ونجاته من معركة كان الأشرف له فيها أن يموت ورغم أن الحياة هي الأمل والأمل في الحياة بعض من النبل فإن محاربة طواحين الهواء بتصور أنها هي العمالقة تحمل من السذاجة أكثر ما تحمل من المثالية وسيكون جلوسي على ضفة النهر بصنَّارة لصيد السمك ليس حلًّا واقعيًّا فحسب وإنما سببًا للسعادة لأن المدينة لن تتغير ولأن تغيير المدينة قد يؤدي إلى مدينة أسوأ

وفيما أشرد في ذلك أفكر أن أرشيفي الشخصي لن يكون في مأمَن في بيتي وأن هدف الأرشيف ليس الاحتفاظ به وإنما منحه للحياة وللصدفة وبالتالي اقتربت من مكتب بريد وطلبت إرسال طرد ووضعت الأرشيف في ظرف كبير وحاولت تذكُّر أي عنوان يمكن أن أرسل عليه الطرد أي عنوان زرته ذات يوم أو مررت به وترك ذكرى في قلبي حاولت وعصرت رأسي لكني لم أتذكر أي عنوان فقلت يا

دانيال أَرسِل طردك إلى الصدفة لأن الكلمات تصل إلى قارئها السليم مهما أخطأت الطريق في البداية فكتبت عنوانًا عشوائيًّا وأرسلت الأرشيف إلى العدم بيقين أن من العدم جاء الوجود وحين خرجت إلى الشارع مرةً أخرى شعرت بخفَّة لم أشعر بها من قبل وانتبهت إلى أن ما كان يُثقلني هو الحقيبة والأرشيف وما داخل الأرشيف واكتشفت أن الكلمات تُثقِّل الأوراق وأن ورقة بيضاء ليست مثل ورقة سوداء ولو قال الميزان عكس ذلك وفي الشارع رأيت خيوط الماريونت فوق رؤوس العرائس ورأيت اليد التي تحرِّكها وتأملت كيف تضاءل حجم الناس ليتخذوا حجم الدُّمَى ولو كانت كبيرة الحجم

وفي شرودي رأيت امرأةً تتحرك في بيتي ورأيتها تجلس على كرسيٍّ وتنظر من نافذة الدور السادس وتتطلع إلى الطابق الخامس بالبناية المواجهة بحنينٍ لا أعرف سببه وكان الطابق الخامس خاليًا إلا من شموع مضاءة كأنها تطوِّق تابوتًا ينام فيه جسد فارق الحياة وفكرتُ أن المرأة تحنُّ إلى ماضٍ لم يعُد موجودًا وإلى شخص لم يتبقَّ منه إلا جسد ميت ورأيت المرأة تفتح دفترًا كتبت في صفحته الأولى كلمة رواية وتدوِّن فيه كلمات حب واشتياق تناقض كلمات الضيق الأولى كأن بفَقْد من فقدته استعادته وكأن الحب لا يُولد إلا في الغياب وحاولتُ بكل ما أوتيتُ من قوة وذاكرة أن أتذكر عنوان هذا البيت لأني فكرت أنه بيتي لكني لم أتذكر وقلت سأسير وأسير ولا بد أن ذاكرة قدمَيَّ أقوى من ذاكرتي ولا بد أنهما ستأخذانني في النهاية إلى سرير أستريح فيه ووسادة أضع عليها رأسي المتعب وفي سيري دققت النظر في عيون الدُّمَى فلم أرَ إلا عيونًا زجاجية زائغة ومترعة بالتِّيه تمامًا كما تمثال الروح الذي رأيته في المتحف المصري وسألت أمي عنه فقالت إنه تمثال لميت وانظر يا دانيال هاتان الذراعان فوق الرأس لتمييز أنه لميت وحين دققت النظر في عيونهم رأيت نظرتي ذاتها يوم اخترقني الشيخ ونظرتي ذاتها يوم تركته أمام المقطورة وركضت ونظرتي ذاتها يوم صفعني أبي صفعة تسببت في

نُدْبة الخدِّ الأيمن

ورغم أن الشوارع كانت شبه مغلقة لأن حظر التجوال لم يدَعَ فرصةً للخروج وبالتالي لم تكن ممتلئة بالدُّمَى وكانت حركة السيارات محدودة فإني في مكان ما رأيت تكدسًا وطوابير يصطفُّ فيها دمى من الرجال مئات من الدُّمَى آلاف من الدُّمَى وحين اقتربت بفضول لأعرف ماذا يحدث كما كنت أقترب من قبل كلما رأيت عراكًا بين شخصين لأعرف سبب العراك لا لشيء إلا لأني كنت أريد معرفة لماذا يتعارك الناس التفتُّ إلى لافتة كبيرة وصفراء مكتوبًا عليها بالأخضر مكتب بريد فلم أفهم لماذا يصطفُّ كل هؤلاء أمام مكتب بريد فوقفت في الطابور وسألت شخصًا بعينين زجاجيتين وقفتُ وراءه ما سبب الزحام فقال لي انظر إلى الحقائب التي يحملها الواقفون على أكتافهم فسألته وماذا في الحقائب قال لي يحملون أرشيفهم الشخصي ويرسلونه إلى عنوان مجهول لأنه لم يعُد ممكنًا الاحتفاظ بشيء بخط أيدينا في بيوتنا ولم يعد ممكنًا أن نحمل سرَّنا في قلوبنا إلى الأبد فقلت له وما السر الذي تريد الدُّمَى أن يبوحوا به لمجهول فنظر إليَّ وربَّت على كتفي وقال يا دانيال أنت من تسأل يا دانيال أنت تعرف يا دانيال لأنك أنت من أرشدتنا إلى طريقة كتابة أرشيف شخصي وإرساله لمجهول قلت له متى حدث ذلك متى أرشدتكم متى فعلت ما تقول إني فعلته فسألني ألم تفعل قلت فعلت لكني لا أعرف هل اليوم

أم أمس لأني لا أعرف تقدير الزمن ثم انتقلت إلى بداية الطابور وسألت دُمْيَة رجل هل يمكن أن ترسل أرشيفك إلى عنواني قال لي نعم أرسله لك قل لي عنوانك قلت له اتفقنا سلِّمني أرشيفك الآن لأن الآن وهنا هو عنواني فاستغرب الرجل كدُمْيَة ولفَّ رأسه يمينًا ويسارًا كدُمْيَة متعجبة ثم أعطاني أرشيفه

حملت أرشيف الرجل وجلست على دكة قريبة وقلت لنفسي فلتقرأ الآن يا دانيال ما ترسله الدُّمَى لعناوين مجهولة فقرأت في الصفحة الأولى عنوان **أرشيف دانيال – العصر الأول** مكتوبًا بخط أسود وكبير وقلبت الصفحات صفحة وراء أخرى فلم أجد إلا حكايتي ذاتها وفي آخر الملف توقيع باسمي ذاته فنهضت وركضت إلى الطابور الطويل الذي ازداد طوله أمام مكتب البريد وطلبت من أحد الواقفين أنْ من فضلك هل تسمح لي بالاطِّلاع على الملف الذي سترسله الآن فلم يستغرب الرجل وأومأ كدُمْيَة وابتسم كدُمْيَة وقال لي على الرحب والسَّعَة يا دانيال ها هو ملفي لكن هل تسمح لي أن أرسله بالبريد بعد أن تطَّلع عليه قلت نعم سأفعل ففتحت الملف وأنا بجواره لأقرأ في الصفحة الأولى عنوان **أرشيف دانيال - العصر الأول** وفي نهاية الملف توقيع باسمي ذاته وحين ذُهِلت قلت لنفسي إما أنني في قمة اليقظة أو في عمق الحلم وإما أنني في قمة الوعي أو في عمق الجنون فسألت الآخرين من فضلكم قولوا لي هل الملفات التي سترسلونها بتوقيع دانيال قالوا نعم وعنوانها أرشيف دانيال - العصر الأول قلت لهم هل كل الملفات نسخة مكررة من أرشيف دانيال قالوا نعم كلها نفس النسخة سألتهم ولماذا لم تكتبوا أرشيفكم الشخصي بدلًا من نسخ ملف آخر فنظر بعضهم إلى بعض وابتسموا

في حياء وقال أحدهم في النهاية مَلفُّنا أيضًا أصلي يا دانيال قلت لهم لكني أرسلته إلى عنوان مجهول لأني لا أعرف عنوانًا لصديق ولا زميل مدرسة ولا زميل عمل بل ولا حتى أذكر عنوان بيتي فنظر بعضهم إلى بعض كدُمْيَة تنظر إلى دُمْيَة وتحرَّكت العيون الزجاجية يمينًا ويسارًا ثم قال أحدهم ومَنْ أدراك أن لنا أصدقاء أو زملاء أو أقرباء أو معارف نعرف عنوانًا لهم حتى الذين يقفون هنا في نفس الطابور لا يعرف أحدهم الآخر ولم يجمعهم شيء إلا إرسال الأرشيف عبر البريد ورغم أنه قد يكون ممكنًا أن نتبادل العناوين الآن وأن يرسل أحدنا إلى الآخر نفس الأرشيف الذي هو الأرشيف نفسه فإن لا أحد منا يذكر عنوانه ولو حدث وتذكَّر أحدنا عنوانه كافتراض بعيد سنفضِّل أن يبلغ الأرشيف مكانًا لا نعرفه ليقرأه شخص لا نعرف من هو ولا كيف يكون قلت لنفسي ربما يكون ذلك هو الخلود أن يصل أرشيف شخص إلى قارئ غير متوقع إلى قارئ لم يرَ كاتب الأرشيف ولا يتخيل هيئته إلى قارئ يقرأ حكايته ذاتها مكتوبة بتوقيعه ذاته لكن بخط شخص آخر وفي اللحظة التي يتعرَّف فيها إلى الكاتب يتعرَّف إلى نفسه وينظر إلى حياته كأنه ينظر في بئر ممتلئة فيرى فيها ليس وجهه فحسب وإنما شوارع روحه وأزقَّتها بأبوابها ونوافذها وفي آخر الملف يوقِّع باسمه لأن الحكاية حكايته ولأنه عثر على ذاته في هذه الحكاية

في أحد الشوارع الرئيسية كان الأمر مختلفًا قليلًا إذ لم يكتفِ الناس بمكتب البريد وإنما راحوا ليوزعوا أرشيفهم الشخصي على المارَّة كما كان يفعل أصحاب المطاعم دعايةً لمطعمهم الجديد لكن هذه المرة ليست ورقة تحمل اسم المطعم ومنيو الوجبات وأسعارها وإنما ملف ضخم يحكي حكاية واحدة يصعد بها صاحبها إلى الأُوتوبيس كدُمْيَة ويتركها في حِجر أحد الجلوس وهو دُمْيَة أخرى ثم ينزل من الباب الخلفي ليلتقي آخر يستوقفه ويعطيه أرشيفًا فيتسلمه ويقلِّب صفحاته ويوزِّعه على آخر في سلسلة لا نهائية من التسليم والتسلم والقراءة كل ذلك في وسط أجواء حظر التجوال وفي لحظةٍ ما هُيئ لي أن الدُّمَى ترتدي زيًّا أزرق وأنها تتعارك مع دُمى أخرى بزِيٍّ أخضر وهُيئ لي أن أوراق الأرشيف تتطاير من دون أن أعرف هل ستستقر في مكانها الطبيعي أم ستظل محلِّقةً في سماء مفتوحة

وسرت لا أعرف ساعة أم ساعتين يومًا أم يومين سنة أم سنتين إذ إني لا أعرف تقدير الزمن وحين وصلت إلى الميدان توقفت عند دُمْيَة تبيع الجرائد ونظرت في المانشيتات الرئيسية فكانت كلها نفس المانشيتات وكانت تقول حركة تمرُّدية تقودها الدُّمَى وأرشيف مزيَّف تتداوله الدُّمَى وشائعات عن حوادث قتل لا أساس لها وصدور أمر بحظر التجوال لإعادة الأمن إلى المدينة وفي الربع الأخير من الصفحة الأولى خبر عن سرقة الأرشيف المركزي من قِبل مجموعة من المتمردين ودعوة لإعادة ملفاته توجهها السُّلْطة للدُّمَى الأفاضل حتى لا يقع في أيدي قوى معادية أثناء ذلك تجلى لي في الأفق شوبان وهو يعزف مقطوعة رومانس لارجيتو ورأيته يتحرك بين السحاب فاتَّبعته حتى عبرت كوبري قصر النيل وفي المسافة بينه وبين كوبري الجلاء كانت دُمى بالزي الرسمي تدهن الجدران بالأسود لتزيل رسومًا وجرافيتي فتساءلت لماذا لا يوزعون أرشيفهم رغم أنهم بالتأكيد لهم أرشيف لا يختلف عن أرشيفي ثم فكرت أن كتابة الأرشيف يحتاج إلى شيء لم يتمتعوا به بعد وأنهم حين يُنهون خدمتهم سيكتبون أرشيفًا ربما أكثر ثراءً من أرشيفي وفيما كنت أشرد في محتوى أرشيفهم المفترض اقتربت مني دُمْيَة رجل خضراء وسألني عن بطاقة هُويَّتي وحين أطلعته عليها نظر إليَّ كأني محارب مهزوم

وأمرني بنبرة النصح بالالتزام بالبيت أفضل فسألته عن بيتي فظنني أسخر منه ثم لا بد رأى التِّيهَ في عينَيَّ فقال المدوَّن في البطاقة على بُعد ربع ساعة سيرًا فبادلته النظر وقلت له لكني لا أعرف تقدير الزمن

حين عبرتُ كوبري الجلاء كان شارع التحرير مغلقًا بالمتاريس وخلف المتاريس الآلاف من بكرات الخيط والآلاف من الدُّمَى بالزي الرسمي يصنعون خيوطًا قوية وبعضهم يعلِّقها على أعمدة الإنارة مثل زينة رمضان ويمتد ذلك على مرأى البصر فلما اقتربت وقلت لهم من فضلكم أريد العبور بيتي هنا رفضوا وعاملوني بعنف وأمرني أحدهم أن أَلِفَّ من الشارع الموازي لأنهم الآن يصنعون خيوطًا لدُمى منفلتة وحذرتني دُمْيَة أكثر سلطةً من تعطيل الدُّمَى الأخرى عن العمل فسرت من شارعٍ مُوازٍ ورأيت الشرفات والنوافذ ملأى بسكان بعيون زجاجية ينظرون إلى أسفل وواصلت سيري حتى وصلت إلى ميدان ڤيني وهناك رأيت النافورة جافة بلا مياه وحولها أجساد مطبوعة على الأرض بعد أن جفت الأمطار ورأيت دانيال وإبراهيم ينتظرانني كأنهما يعرفان بميعاد وصولي

حكى لي إبراهيم أنه رأى كابوسًا مات فيه فانقبض قلبي وقلت له يا إبراهيم عُد إلى البيت لا داعي للمدرسة اليوم فقال لي لا يجب أن نستسلم لكوابيسنا يا دانيال وأنا لست مثلك أؤمن بالأحلام فقلت له يا إبراهيم أين تذهب الروح حين ننام قال لا أعرف قلت إلى الغيب إلى حيث لا يذهب الجسد وركض أمامي وهو يشوط علبة كانز ويقول لي هيا نلعب لأن الجو برد جدًّا وراح ينفخ في قبضتيه ليشعر بالدفء وكنت أشعر بالبرد أيضًا فنفخت في قبضتَيَّ لأشعر بالدفء وقال هيَّا نلعب حتى نصل إلى المدرسة قلت لا ألعب يا إبراهيم قال سألعب مع دانيال الآخر وظل كل منهما يشوط العلبة حتى بلغنا الطريق الترابي فكفَّا عن اللعب وحينها كان النخل على يسارنا شاهقًا مثل ستائر تتدلى من السماء ورؤوسها مثل ورد مفتَّح وخلف الستائر طريق أسفلتي وكوبري وسيارات وصرخات موتى يريدون العودة إلى الحياة وعلى يميننا أرض واسعة تنتهي بحقل وببيوت قصيرة وعلى مدى الرؤية بنايات من ثلاثة طوابق أو خمسة ومدرسة دانيال الصغير ثم مدرستي أنا وإبراهيم

حينها ناداني الشيخ وقال تعال يا دانيال فارتجف قلبي وقلت لم أحفظ يا شيخ قال تعال يا دانيال فقلت لإبراهيم رُح أنت لأني خائف جدًّا فنهض إبراهيم وراح مكاني فقال الشيخ لنا دسُّوا وجوهكم في الدِّكَّة ولا تنظروا وليراجع كل واحد فيكم حتى يأتيَه الدور وأمر أحد التلاميذ أن يقف على الباب من الخارج وأنا مثل الجميع دسستُ وجهي في الدكة لثوانٍ معدودة ثم رفعت عينَيَّ لأرى إبراهيم جالسًا على حِجْر الشيخ وكان إبراهيم هو أنا ذاتي بوجهي النحيف وشعري الناعم وكان يطلع وينزل وينظر إليَّ بألم مكتوم وحين التقت نظرتنا شعرت بألم فبكيت ورغم أن الألم لم يستمر دقيقة أو دقيقتين لا أعرف فإنه بقي محفورًا بداخلي وظل أبديًّا ومع سائل الشيخ الذي أغرق إبراهيم أو أغرقني شعرت بالخزي وشعرت بالهزيمة ونزل بيني وبين العالم ستارة سوداء ملأى بوجوه مخيفة ومشاهد مرعبة فركض إبراهيم او ركضت انا لأغتسل من الدنس ولأرفع الستارة السوداء من أمام عينَيَّ لأرى فتُهت في ممرات المدرسة ولم أعرف أين الحمَّام الذي دخلته من قبل مائة مرة ورأيت إبراهيم أو رأيتني ألقي بنفسي أمام عربة مقطورة لتفرم جسدي حتى لا يعود له وجود ورحت لأجلس أمام عتبة بيتنا لأواصل البكاء حتى يعود أبواي من العمل وفيما كنت مفطورًا من البكاء شعرت بيدٍ حانيةٍ تلامس شعري فلما رفعت رأسي رأيت دانيال يقول

لي ماذا حدث قلت له إن إبراهيم مات وإن مقطورة دهسته ولم يبقَ منه شيء

في هذا اليوم بالذات شعرت بأني دُمْيَة بعينين زجاجيتين وجسد من العاج وفي هذا اليوم بالذات لم أنَمْ ولم أعرف الراحة لأن قلبي كان ينزف ولسببٍ لم أفهمه كنت أشعر بألم كبير في ساقي اليسرى كأني قفزت من مرتفَع إلى بئر جافة فنزلت على هذه الساق وحدها وفي هذا اليوم بالذات لم أبدِّل ملابسي ولم آكل ولم أشرب ولم أرَ إلا مشهدًا واحدًا ثابتًا أمام عينَيَّ لا يفارقني كنت فيه منقسمًا إلى شخصين أحدهما جالس على حِجر الشيخ والآخر جالس على الدكة وكلاهما يتبادل النظر بألم وحسرة وحزن وحين حلَّ الليل جاءني إبراهيم من العالم الآخر وألهمني خطة الانتقام وقال لي إن أردت أن تبقى دُمْيَة كما أنت فلا تنفذها وإن أردت أن تستعيد نفسك اقتل الشيخ لأنك بقتله تستعيد نفسك وتحمي الآخرين من شروره ثم هل تريد يا دانيال أن تعيش حياتك مهزومًا قلت لا قال فلتفعل ما أمليه عليك

ومن دون أن أنام وبخوفٍ يملأ قلبي وبحزنٍ يسكن معدتي فيؤلمها وبشعورٍ بالذل يسيطر على جسدي ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي واقتربت من الشيخ وقلت له أريد درسًا في التجويد وماما تدعوك إلى البيت فتهلَّل وجهه ربما لأنه فهم أنها دعوة مني لنستكمل ما حدث في اليوم الفائت وربما لأنه ضمن غداءً وفلوسًا ستغطى نفقاته وفى هذا اليوم جعلني أنا رائد الفصل فوقفت على الباب حين أمر التلاميذ بدسِّ وجوههم في الدكة ونادى زميلًا آخر وفي هذا اليوم خرجت معه من المدرسة بنيَّة أن أتركه أمام عربة نقل أو مقطورة لتدهسه كما دهستني بالأمس أو دهست إبراهيم وكان العالم يومها أسود وقاتمًا والسماء غائمة ومحمَّلة بالأمطار وكنت أرتجف من البرد ومن الخوف ومن المصير المنتظر وكنت أمسك بيد الشيخ كضحية تمسك بيد جلادها لتعبُر به الطريق وكان بالطريق سيارات كثيرة ومسرعة ولم يكن أي وجود للبشر كأنهم اختفوا في فجوة زمنية لم أحضرها وفيما كنت أجمع شجاعتي وقوتي لأعبر الطريق نظر إليَّ دانيال الصغير بعينين دامعتين وقال يا دانيال لا تفعل يا دانيال لا تقتل يا دانيال سيظل الدم ملتصقًا بيدك طول حياتك يا دانيال سيظل مشهد القتل يؤلمك مثل مشهد الاغتصاب يا دانيال لا تنتقم لأن الانتقام نار تحرق صاحبها وفيما كنت أستمع لدانيال وأبكي لأني

ليس بوسعي التقدم خطوة للأمام ولا الرجوع خطوة للخلف عبرنا الطريق الأول ووقفنا في نهر الطريق بجوار أشجار قصيرة فقال لي دانيال سأعبُر أنا وأنتظرك هناك تعالَ مع الشيخ لا تتركه في منتصف الطريق أمام سيارة طائشة وكان صوته الحاني والصادق يحرِّك قلبي بقوة فقررت أن أتراجع عن قتله وقررت أن أعبر به الطريق ثم أتركه في مأمن وأركض وكنت أفكر في هذا القرار وأتخيله فيما كنا نعبر الطريق الثاني وفي لحظة خارج حساباتي هاجمتنا سيارات كثيرة من الأمام والخلف وحاولت أن أهرب منها وأنا أجرُّه لكنه كان أعمى وثقيل الحركة وبدينًا وفي لحظة كان أمامي أن أختار بين أن أموت معه أو أنقذ نفسي فنجوتُ بحياتي

لم يصدِّق دانيال أبدًا أني تراجعت عن الخطة في لحظاتها الأخيرة وأني كنت أحاول إنقاذ الشيخ في لحظةٍ لم يكن ممكنًا فيها إنقاذه فلم أعرف حقيقةً إن كنت قتلته أم تخليت عنه فحسب إن كنت سعدت بموته أم حزنت لكني تجمَّدت وتبوَّلت على نفسي من الرعب وقلت لبابا إني كنت الطفل الذي كان برفقة الشيخ فصفعني من قبل أن أقول إني أنا نفسي لا أعرف إن كنت قتلته أم تخليت عنه وفي اللحظة التي فارقني فيها بابا تخلَّى عني دانيال الصغير وبدا نائيًا ولم يتبقَّ لي من الحادثة إلا ندبتان واحدة ظاهرة في خدِّي الأيمن وأخرى غائرة في قلبي ثم بعدها كلما أغمضت عينَيَّ كنت أرى رأسه يرتطم بالأسفلت وأراه ينزف وأرى المقطورة تدهسه ولأني في قرارة نفسي أعرف أني لم أقتله تحوَّلت إلى دُمْيَة بعينين زجاجيتين

حين وصلت إلى البيت كانت الدُّمَى الخضراء منتشرة في كل مكان فظننت في البداية أنهم يبحثون عني حتى أدركت أنهم يبحثون عن الجميع ثم رأيت عددًا كبيرًا منهم يتسلق البنايات العالية ويشدُّون الخيوط التي تشبه أسلاكًا كهربائية بين العمارات لتجهيزها للدُّمَى ورأيت أمام بيتي الكلب الذي غطيته بجاكتي وحين رآني اقترب مني ولعق ساقي اليسرى المتألمة كصديق قديم فربَّتُّ على رأسه وجلست على ركبتَيَّ لأتحسس فروته ثم دخلت العمارة وركبت المصعد وضغطت على الرقم 6 فلما وصل وجدت الطابق بأكمله مغطى بملفات مرصوصة بعضها فوق بعض حاولت السير بينها حتى أصل إلى باب الشقة فلما فتحته قلت هذا بيتي إذن وذاكرتي التي تخونني كثيرًا لم تخنِّي هذه المرة فدخلت وأنا أقول لنفسي أحتاج إلى النوم وهي العبارة نفسها التي قلتها لنفسي أيضًا يوم موت الشيخ وقلت لنفسي لكني سأستحمُّ أولًا لكن البيت كان فوضى عارمة أوراقًا مبعثرة في كل مكان ونافذة الصالة مفتوحة ففكرت أن حشرات قد دخلت لكني لم أهتمَّ وقبل أن أدخل الحمَّام رأيت صورًا فوتوغرافية معلقةً على الحائط لرجل يشبهني يرتدي بدلة زفاف وبجواره امرأة ترتدي فستانًا أبيض أعرف أني رأيتُها من قبل لكني لا أعرف أين ولا متى وبجوارها صور للمرأة نفسها في أماكن مختلفة بين

جناين وشوارع ومدن أجنبية لا أذكر أني زُرتها وصورة وحيدة لي منفردًا كنت فيها أتسلَّم ميدالية لا أعرف عن ماذا وكنت أرتدي ملابس رسمية من دون كراڤت وكنت أبتسم ابتسامة مجاملة بجانب واحد من وجهي كأن شرط الصورة الابتسامة وفيما كنت أستحمُّ والماء يغرق جسدي رأيتني وأنا أُهاتف أحد ضحاياي وأتفق معه على موعد لتسليمه ملف يهمه وألتقي به في شارع عبد العزيز آل سعود بالمنيل وأركب سيارته لأضع الملف بين يديه فيقلِّبه وينظر إليَّ ويحدِّق فيَّ ويسألني ماذا أريد فأُخرِج مسدسًا من جيبي وأوجِّه رصاصةً إلى قلبه لأتأكد أن له قلبًا وأنتظر تدفق دمه كنافورة لأتأكد أن بعروقه تجري دماء لكني لحُسن حظي أو لسوئه لا أرى دماء ثم أسحب مطواةً من حزامي وأقطع بها عضوه وأضعه في فمه وأغلقه عليه وأنزل من السيارة ببرود وأسير في الشارع ببرود وأشعر بأني لست دُمْيَة وأن عينَيَّ ليستا زجاجيتين

لمَّا خرجت من الحمَّام ملفوفًا ببشكير وأشعر بالبرد رأيت مجموعة من الدُّمَى الخضراء في الصالة يطوِّحون أوراقي على الأرض لا لأنهم يحتقرونها ولكن لأنهم يُخلون الترابيزة لوضع بكرات الخيط عليها إذ لسبب مجهول لم أتبينه اختاروا شقتي ليجهِّزوا بداخلها صفوفًا من الخيوط التي يعلِّقون عليها الماريونت وحين سألتهم ماذا تفعلون قالوا واجبًا وطنيًّا واحمد الله أنهم لم يهدُّوا بيتك كما هدوا بيوتًا أخرى قلت الحمد لله هل أعد لكم شايًا أو قهوة أو طعامًا قالوا لا الوطن لا يأكل واستمروا في عملهم وأنا ألملم أوراقًا مبعثرة وأرتبها بأي طريقة وفي لحظة انتبهت إلى أنهم رحلوا وآثار أقدامهم على إطار النافذة فقلت لنفسي لا بد أنهم نزلوا بالحبل السميك الذي وضعته من قبل حين تملَّكني وسواس بأن زلزالًا سيهدم العمارة وأضطر للنزول به إلى الشارع وكانوا خلَّفوا وراءهم بقايا خيوط صنعتْ شوارع مدينة وبكرات بَدَتْ كبوَّابات القاهرة الإسلامية وقلت لنفسي لماذا لا أستخدم هذا الخيط لأرى بماذا يشعر من يستخدمه ففردت خيطًا وراء آخر وربطت كل طرف في حائط بالصالة وأخرجت صورتي من إطارها وثقبتها وعلَّقتها بخيط يتدلَّى بخفَّة فبدت صورتي في موقعها الجديد في مكانها المناسب وحينها شعرت بشعورين متناقضين شعور من صنع الماريونت وأنا جالس على كرسي الأنتريه وشعور

الماريونت نفسها والهواء يحرِّكها يمنةً ويسرةً في حركة شبه دائرية وحينها جاءني دانيال ووقف بجواري وقال لي هل تعرف يا دانيال أن هذه الصورة تمثِّلك تمامًا قلت له لا أفهم ماذا تقصد قال لي إن دانيال الجالس على الكرسي هو دانيال الموظف في الأرشيف وإن دانيال المعلَّق بخيط هو دانيال خارج الأرشيف ثم قال لي أَكمِل لعبتك

نهضت من الكرسي وأخرجت صورة المرأة من إطارها وثقبتها وعلَّقتها في خيط آخر يتدلى وحينها لاحظت أنها تدور في فلك آخر غير فلك صورتي فلا يلتقي الوجهان أبدًا كأن اللعبة أن وجه أي صورة لا يقابل إلا ظهر الصورة الأخرى وكأن الإقبال على شيء لا يعني إلا نفور الشيء منه فراقت لى اللعبة ونزعت بقية الصور من إطارها وعلَّقتها بنفس الطريقة فغدت الصالة جدارين متقابلين يربطهما خيط واهن يتدلى منه خيوط أوْهَن معلق بأطرافها صور لا تتلاقى ورغم برودة الجو شغَّلت المروحة وثبَّتها في اتجاه الصور فراحت تطيِّرها ككائنات فقدت اتصالها بالجاذبية الأرضية ولا تعرف في أي فضاء ستستقر وحينها تذكرت حُلمًا قديمًا رأيتُني فيه مع دانيال وإبراهيم كنا نطفو فيه على وجه الأرض وكنا نطير على مسافة منها

ثم تجولت بالبيت لأبحث عن صورة لإبراهيم ودانيال وشوبان فلم أعثر لأيٍّ منهم على صورة لكني أثناء ذلك عثرت في غرفة النوم على صور لثلاثة أطفال في أيامهم الأولى أحدهم يرتدي فستانًا أحمر والثاني أزرق والثالث أسود ولم أفهم هل كان الفستان الأزرق صحيحه أن يكون أبيض أم أنه كذلك منذ البداية وأضفت الصور الثلاث لخيوط الصالة لتعيش حياتها الجديدة مع إخوتها من الصور ولتطفو على وجه الماء أو في الفضاء ثم عاودني

وسواس بالبحث عن صورة لإبراهيم بالذات ففتحت أحد أدراج الكومودينو وعثرت على صورة منسية لأبي وأمي بينهما طفل في الرابعة تقريبًا لا بد أنه أنا وفي خلفيتها من بعيدٍ لافتة يظهر منها نصف وجه لمبارك وعبارة مشوشة تقول لا بد أن نواجه التحديات العاتية بعقول واعية وأقدام ثابتة فابتسمت وقلت إن العقول الواعية معلَّقةً الآن في الصالة وأن الأقدام الثابتة تملأ الشارع وتعلِّق الخيوط هناك وتذكَّرت يوم تركت الشيخ أمام المقطورة وعدت إلى البيت بساقين مرتجفتين ورأيت اللافتة نفسها كأن القدر يسخر مني ثم قال لي دانيال علِّق هذه الصورة لكن قُصَّها ليكون كل واحد منهم حُرًّا في حركته في حياته الجديدة ففرَّقت بين العائلة بأن قصصت وجه أبي أولًا وقبل أن أقصَّ وجه ماما لأفصله عني تراجعت وقلت لنفسي أحب أن أتعلَّق بجانب ماما في الخيط نفسه ولما يئِست من العثور على صورة لإبراهيم رسمته بقلم رصاص فبدا سمينًا أكثر من الحقيقة لكني فكرت أنه هكذا سيكون أكثر وسامةً فعلَّقت الرسمة بجانب الصور فبدا إبراهيم قائدًا بصحبة جنوده

حين حلَّ الليل أظلمت الشقة تمامًا وتوقفت المروحة عن الدوران واختفى صخب المبرِّد المزعج فنهضت من الكرسي لأفتح النور فلم أجد نورًا وفي استغرابي من الظلام المطلق جاءني دانيال وقال لي أنت تحب ضوء الشموع يا دانيال فأحضرتُ شموعًا ووزَّعتها على شمعدانات الصالة المربعة فبدت شموعًا تحيط بتابوت هو الترابيزة ذاتها وبدا الطقس بأكمله جنائزيًّا تتطلع إليه دُمى معلَّقة بالأعلى ويديره شخص يجلس على كرسي يطلُّ من نافذة على الشارع هو أنا ويحوم حوله شخصان أعرفهما منذ طفولتي هما إبراهيم ودانيال الأول فيهما لم يكبُر منذ الطفولة والثاني كان ينمو بمقدار ما أنمو غير أنه احتفظ لنفسه بروح الطفل الذي كنتُه فيما رحت لأتلوث بالحياة وحينها تذكرت لعبة كنت ألعبها في الظلام منذ زمن بعيد وهي ألعاب الظل وعبر أصابعي رحت أكوِّن حصانًا وفيلًا وذئبًا وامرأة حاملًا وحيواناتٍ خرافية وكانت تبدو على الحائط بأحجام أكبر من الحقيقة وكانت الشموع تتراقص على الحائط ذاته فتصنع راقصة من تلقاء نفسها وخطر لي أنه لا ظل في الظلام المطلق وأن الظل يحتاج إلى بعض النور ليظهر وأنني لو أطفأت الشموع الآن سيختفي كل شيء الحصان والفيل والذئب والحيوانات الخرافية وإبراهيم ودانيال وأنا وقبلهم جميعًا سأختفي أنا

وفيما كنت أتطلَّع من النافذة إلى الشارع ويهرب إلى سمعي أصوات تأتي من بعيد سادت في المدينة معزوفة رومانس لارجيتو بشكل لا يمكن مقاومته حدَّ أني لم أكن أعرف هل تصدر من رأسي أم أنها صارت معزوفة الكون في تلك اللحظة أم أنها تنبعث من راديو بإحدى العمارات القريبة ما كنت أعرفه حينها أن صدرى كان ممتلئًا بهذه المعزوفة وكان قلبي يفيض بها ويرتجف ثم في لحظةٍ مفاجئةٍ ظهر لي شوبان وهو يعزفها في السحاب وينزل قليلًا حتى يقف بيني وبين العمارة المواجهة وكان شعره الناعم ووجهه النحيف يُذكِّرني بدانيال الذي عرفته وحين تنحَّى إلى أحد الجانبين لمحت من ورائه في الطابق الخامس بالتحديد شقة مضاءة بكثير من الشموع يجلس فيها شخص لا أعرف إن كنت أعرفه أم لا ويكتب بشراهةٍ كأنه سيودِّع العالم بعد ساعات وعليه الآن أن ينجز أكثر مهامِّه قداسةً وكان هذا الشخص نفسه يتطلع إلى شوبان مثلي من دون أن أعرف إن كان يراني أم لا وكان يكتب بخط اليد اليسرى على ورق فلوسكاب بحسب ما ظننت ويرفع رأسه كل دقيقتين ليفكر في العبارة الجديدة وفي لحظة مفاجئة أخرى ظهرت من ورائه امرأة تشبه المرأة المعلقة صورتها في شقتي وكانت تتحرك في البيت كأنه بيتها لكن من دون أن تقترب من دانيال أو توجِّه له كلمة وحين دققت النظر لاحظت أن

المرأة تتحرك كدُمْيَة رغم أني لا أرى الخيط الذي يحرِّكها ثم اختفت المرأة بالداخل لدقيقةٍ أو خمس دقائق لا أعرف فأنا لا أعرف تقدير الزمن وظهرت بكتاب ميَّزته من مكاني بالنافذة ووضعتْه بجوار دانيال ثم راحت لتكمل تجوالها بالبيت فيما شعرت أنا ببعض الدُّوَار الذي قطع شرودي وفيما رحت أنفض رأسي لأستعيد وعيي لمحت كتابًا على المنضدة أمامي فقلت سألهي نفسي فيه حتى الصباح ولاحظت وأنا أقلِّب صفحاته أنها رواية وأني قطعت شوطًا كبيرًا في قراءتها لكني لم أُنْهِها فقررت أن أقرأ الفصل الأخير حيث تركت قلمي الأزرق وعلَّمت بنفس القلم على عبارات بدت لي ملخصًا للقصة أو مفتاحًا لها

49

"المسافة التي نقطعها في البعد عن شخص كنا نحبه ولم نعد كذلك هي مسافة نقطعها نحو أنفسنا التي غابت وراء هذا الحب لسنوات طوال. ثمة أقاويل كاذبة تحاول خداعنا دائمًا تؤكد أن الإنسان كائن لا يحب التغيير وأنه خُلِق ليكون شجرة لا ليكون عصفورًا، وفي لحظة انتباهنا لمأساتنا وفى لحظة رؤيتنا لأنفسنا كدُمْيَة تحرِّكها يدٌ أخرى سواء كانت ظاهرة أو خفية، ننتبه إلى أن لنا جناحين وأننا في العمق نحمل عصفورًا قادرًا على الطيران. أنا الآن في هذه اللحظة. أتطلَّع إلى الحب ككائن منطفئ. لا يهمني إن عاد هذا الرجل الذي أحببته أم لا. لا يهمني أن يكون قد اختفى أو رحل بمحض إرادته أو مضطرًّا. ما يهمني الآن، وأنا على عتبات الأربعين، أن ألملم الجثث المنتشرة في حياتي لأدفنها للأبد".

رفعت رأسي من الكتاب ونظرت من النافذة فرأيت دانيال يلملم أوراقه فنهضت من كرسيَّ ووقفت أدخن سيجارة فيما كانت معزوفة رومانس لارجيتو تسود الفضاء كأنها خلفية لفيلم طويل اسمه الحياة وفي مواجهتي وقف دانيال يدخن سيجارة ويتأملني ثم أطفأ كل منَّا السيجارة في اللحظة نفسها وشاور لي بيده في تحية وداع وقال عبارة لم أسمعها ورد فيها اسم دانيال ففهمت أنها رسالة موجهةٌ لي فلمَّا ناديته وسألته إن كان يريد مساعدةً لم يلتفت إليَّ ورأيته من مكاني يرحل عن بيته حاملًا أوراقه وسمعت من مكاني صَكَّ الباب بقوة ورأيت المرأة تتحرك في البيت كشبحٍ أو مُنوَّمة وأطللت من النافذة بميلٍ لأرى في أي اتجاه سيسير فلما رأيته يتجه يسارًا ثم يمينًا وجدت شيئًا من داخلي يدفعني لأتبعه

سحبت كشَّافًا صغيرًا من فوق الترابيزة وفتحت باب شقتي بسرعة وقطعت السلم وأنا أقفز مثل فأر لألحق به وفي الشارع كانت الأمطار قد أوحلت الأرض وكانت أعمدة الإضاءة منطفئة والسيارات راكنةً كجثث تنتظر دفنها والعالم يبدو كأنه خُلِق الآن وينتظر آدم ليبدأ مسيرته المخزية وبحثت عنه بعينين خائفتين وهُيِّئ لى أنه هو هذا الشبح الذي يتحرك على بعد مائة متر أمامي وفي مسيرتي تجاهه اختفى ثم بعد لحظات سمعت صوت رصاصة واحدة هزَّت المدينة بأكملها وهزت قلبي فملأني الرعب لكني صممت على أن أكمل الطريق وأصل إليه ورأيت دانيال وهو يشبه شوبان مَلْقيًّا على الأرض بكامل ملابسه ومقتولًا برصاصة وتحت إبطه حقيبة وفيما كنت أحاول إنقاذه وفيما كنت مرتابًا فيما يجب أن أفعل رأيتُني راقدًا على الأرض ودانيال الطفل يقف أمامي ويسحبني من ذراعي ويقول هيا يا دانيال هذا موعد عودتك إلى الأرشيف فنهضت وانتبهت لطلوع الصبح وأنا أحمل الحقيبة وسرتُ بخُطى متخبطة وأنا أنظر إلى الدُّمَى التي تطلُّ من الشرفات والنوافذ على الميدان والشارع وعند مروري من أمام العمارة التي أسكنها رأيت الكلب ينتظرني فربَّتُّ على رأسه وتذكَّرت أن باب الشقة مفتوح لكني لم أقلق من اللصوص لأن الدُّمَى المعلقة في الصالة كانت تبدو كخيال مآتة تحرس التابوت

المحاط بالشموع المضاءة في جو جنائزي

22

قطعتُ الطريق إلى الأرشيف السرِّي مشيًا ورغم طول المسافة وثقل قدمَيَّ في البداية لم أشعر بالتعب إذ بدأت أتسلَّى بالفرجة على الملصقات والبنايات الكولونيالية وأتلذذ بالسير في شوارع واسعة وعلى أرصفة شبه خالية وأتفرج على مَحالَّ تتصدرها مانيكانات جميلة غدت أصغر حجمًا بحيث تناسب الأجساد الجديدة لدمى المدينة التي كانت تظهر من آنٍ لآخر وأرى فوق رؤوسها خيوطًا غير مرئية تحرِّكها يمينًا ويسارًا كقطارات تسير على قضبان محددة سلفًا أو مثل الترامات القديمة ذات السِّنْجَة التي تحدد اتجاهها وعلى طول الطريق لم أَرَ دُمْيَة ضاحكة أو مبتسمة ولم أرَ دُمْيَة تتلفت حولها ولا دُمْيَة تتكلم مع دُمْيَة وفكرت أن تقنية صدى الصوت التي اخترعتها الجهة السرية قضت بالفعل على الصراعات وشعر الجميع بالسعادة لسماعهم أصواتهم نفسها ثم إنَّ تطور الأمر بتطبيقه على الحياة اليومية جعل كل الدُّمَى لا تحتاج إلى الكلام لأنها تعرف ما ستسمعه وحين اقتربت من مصلحة الأرشيف السرِّي أدهشتني الدُّمَى الخضراء التي تطوِّقها ومع أني لا أزال موظفًا في الأرشيف بشكل رسمي وهُويَّتي تؤكد ذلك فإن الخوف تسرَّب إلى قلبي لأن ما شاهدته خلال سيري كان يقول شيئًا يجب أن أفهمه كما يفهمه كل لبيب مع ذلك تجرَّأت واقتربت من البوابة الرئيسية وأبرزت

هويتي دون أن يغيب قلقي من التفتيش إذ كنت أحمل حقيبة كتف تضم ملفَّي الذي جئت بالأساس لأُودِعَه في الأرشيف لأختفي بعدها إلى الأبد

23

نظرَتْ دُمْيَة خضراء إلى هُويَّتي وجس بأصابعه حقيبة الكتف وسألني إن كنت أحمل شيئًا ممنوعًا فقلت لا إنها أوراق عملي وكنت في إجازة وعدت اليوم فحدّق فيّ الدُمْيَة بريب وطمأنته بابتسامة تصنَّعت الطيبة فسمح لي بالدخول ثم سألني إن كان معي الرقم السري الجديد فقلت لا كنت في إجازة فاصطحبني إلى الباب وفتحه لي وهبط معي السلم وفتح لي الباب الآخر لأجدني في الأرشيف ذاته وأجد المكاتب مشغولة بموظفين جُدُد كاملين فنظرت إلى يساري وابتسمت للرقم صفر الذي لم يتغير رغم أن كل شيء تغيَّر واقتربت منه وحيَّيته وشددتُ على يده وهو نظر إليَّ باستغراب وسألني مَنْ أنا وكيف دخلت إلى هنا قلت له أنا دانيال يا مدير رقم 41 فانتفض الرجل من مكانه وكان أكثر شبابًا مما كنت أعرف وأشار لي بيده إلى آخر الممر وقال دانيال رقم 41 جالس هناك فمَنْ أنت إذن وكيف دخلت إلى هنا وهمَّ أن يرفع التليفون الأرضي ليتصل بالأمن فرجوته أن ينتظر وأطلعته على هُويَّتي وقلت له أنا دانيال لكن ذلك لا يمنع وجود دانيالات أخرى وأنت صفر ولا يمنع ذلك وجود أصفار أخرى ولو أنك تأملت نفسك ولو أنك نظرت في المرآة ولو أنك تساءلت بصدق مَنْ تكون لجاءتك الإجابة من داخل ذاتك ناصعة لتقول لك إنك صفر آخر

***

23

نظرَتْ دُمْيَة خضراء إلى هُويَّتي وجس بأصابعه حقيبة الكتف وسألني إن كنت أحمل شيئًا ممنوعًا فقلت لا إنها أوراق عملي وكنت في إجازة وعدت اليوم فحدّق فيّ الدُمْيَة بريب وطمأنته بابتسامة تصنَّعت الطيبة فسمح لي بالدخول ثم سألني إن كان معي الرقم السري الجديد فقلت لا كنت في إجازة فاصطحبني إلى الباب وفتحه لي وهبط معي السلم وفتح لي الباب الآخر لأجدني في الأرشيف ذاته وأجد المكاتب مشغولة بموظفين جُدُد كاملين فنظرت إلى يساري وابتسمت للرقم صفر الذي لم يتغير رغم أن كل شيء تغيَّر واقتربت منه وحيَّيته وشددتُ على يده وهو نظر إليَّ باستغراب وسألني مَنْ أنا وكيف دخلت إلى هنا قلت له أنا دانيال يا مدير رقم 41 فانتفض الرجل من مكانه وكان أكثر شبابًا مما كنت أعرف وأشار لي بيده إلى آخر الممر وقال دانيال رقم 41 جالس هناك فمَنْ أنت إذن وكيف دخلت إلى هنا وهمَّ أن يرفع التليفون الأرضي ليتصل بالأمن فرجوته أن ينتظر وأطلعته على هُويَّتي وقلت له أنا دانيال لكن ذلك لا يمنع وجود دانيالات أخرى وأنت صفر ولا يمنع ذلك وجود أصفار أخرى ولو أنك تأملت نفسك ولو أنك نظرت في المرآة ولو أنك تساءلت بصدق مَنْ تكون لجاءتك الإجابة من داخل ذاتك ناصعة لتقول لك إنك صفر آخر

***